٢٧٩

HARLEQUIN

روايات احلام

ذكريات بلا ندم

ديانا هاميلتون

www.elromancia.com
مرمورية

ذكريات بلا ندم

هل شكَلت سنة من الفراق فرقاً؟

حاولت كاسي إقناع نفسها أنَ هناك فرق ... فلم تعد تلك العروس الخائفة الساذجة التي أفسدت ليلة زفافها وزواجها من رومان فرنانديز، الثري الاسباني الرَائع.

عيبها الوحيد كان هو ... رومان! وستعود إليه لتواجه هذا العيب وتتخلَص من تأثيره عليها ...

... لكن عينيه قالتا لها إنَه لم يكن نادماً قط، وقال لسانه:

- لنرى إذا كان هناك فرق! ... أريد حقوقي الزَوجيَة كلَها!.

لبنان: ٢٥٠٠ ل.ل.	البحرين: ١ دينار
سوريا: ٧٥ ل.س.	السعودية: ١٠ ريال
الأردن: ١,٥ دينار	مصر: ٦ جنيه
الكويت: ٧٥٠ فلس	المغرب: ١٥ درهم
الإمارات: ١٠ دراهم	تونس: ٢ دينار
قطر: ١٠ ريال	عُمان: ١ ريال

ISBN 9953-15-127-x

ديانا هاملتون

إنها رومنسية فعلاً، فقد وقعت في حب زوجها من النظرة الأولى، وهما يقيمان في منزلهما الجميل الأشبه بقصور الخرافات، حيث يسهران على تربية أولادهما الثلاثة وتشاركهما منزلهما الآن ثماني قطط أنقذاها من الشوارع وكلب صغير. لكن برغم هذا الصخب في حياتها اليومية لا يفارق الكتاب يد ديانا، فهي إما تقرأ أو تؤلف واحداً، هذا ما تفعله منذ أن تعلمت القراءة والكتابة. وهذا أيضاً ما تنوي أن تستمرّ فيه لوقت طويل بعد.

١ ـ عودي إليّ

كان الطقس حاراً ولكنه لم يكن يضيّق على الأنفاس. أمّا في الخارج، فإنّ شمس ذلك العصر من شهر تمّوز لم توفّر أيّ ميلٍ من السّهول المنتشرة، حتّى كادت الحرارة لا تطاق.

انتظرت كاسي. كانت تشعر بجسدها رطباً، يرشح بقطراتٍ من العرق، وقد أثقلته بذلة الكتّان التي مائلت الرّماد والقشدة لوناً. كانت لمّا تزل تلبسها منذ استهلّت رحلتها في لندن، حتّى بلغت أراضي لانس ڤيرديس الواسعة في الأندلس.

شكرت الله في سرّها وهي تفكّر في هذه البذلة الّتي تعمّدت ألا تبالغ في أناقتها، فاستطاعت رغم سفرها بالطائرة ثم بسيّارة الأجرة، أن تحافظ على مظهرها اللاّئق. يجب أن تقدّم نفسها كامرأة أعمال تمتلك زمام الأمور، ولا مجال أن ترضى بأقلّ من هذا.

رفعت يدها لتتأكّد من أنّها كبحت جماح شعرها الكثيف، وعقصته بإحكام إلى مؤخرة عنقها. ولم يكن هذا عزاءها الوحيد، فقد شعرت بانتظامٍ في خفقات قلبها. ولمَ لا تنتظم وقد كفّت منذ مدّةٍ طويلة عن لعب دور تلك العروس الخائفة والسّاذجة التي لم تتجاوز الحادية والعشرين من عمرها؟ أمّا الآن، فقد نضجت، بعد سنواتٍ ثلاث، نضوجاً أكسبها قدراً أكبر من الحكمة.

بعد أن أحسّت بالرضا عن مظهرها، اختلست النظر إلى ساعتها وراحت تتساءل كم من الوقت سيكون عليها الانتظار. كانت سيّارة الأجرة التي استقلّتها في مطار جيريز، قد أوصلتها إلى منزل المزرعة منذ نصف ساعةٍ تقريباً. كان الجوّ في هذه الغرفة الكئيبة المثقلة بالأثاث قد بدأ يخنقها، لا سيما أن النوافذ قد أُسدلت عوارضها ردّاً لأشعة الشمس الحارقة.

أعلنت حماتها: «سأرسل من يخبر زوجك أنّك هنا».

كانت الكلمات قد انسابت على لسان الدونيا إلفيرا بأدبٍ، ولطالما عهدتها كاسي كذلك. فهي ما تزال تذكر أدبها حتّى عندما انهالت عليها بالشتائم اللاذعة التي رجّعت صداها من غير كللٍ، الأختان الكبيرتان، عمّتا رومان: تيا أغيدا وتيا كارميلا.

ـ هل يتوقّع ابني مجيئك؟.

أنبأتها الحركة الخفية على أنف السيّدة الروماني أنّ هذه الأخيرة تدرك جيّداً أن رومان لا يتوقّعها، وأنه فَقَدَ، منذ وقتٍ طويلٍ جداً، أيّ اهتمامٍ أبداه يوماً تجاه زوجته المنفّرة غير المناسبة له.

لكنّ كاسي لم تعد تلك الضعيفة الخائفة التي كانتها يوماً. فما كان منها إلاّ أن تجاهلت سؤالها وأعلنت بفتور:

ـ سأنتظر. في هذا الوقت، أودّ رؤية روي. لعلّك ترسلينه إليّ.

وهكذا انتظرت. لكن تبيّن أن توأمها الذي لحق به العار غير موجود. كان عليه أن يبني سياجاتٍ حول الأراضي، تحت أشعة الشمس اللاّهبة، كعقابٍ ما زال في بدايته.

خلال اتّصالٍ هاتفي أجراه منذ بضعة أيّامٍ، راح يشتكي باضطرابٍ شديد:

ـ إنّي خاضعٌ للإقامة الجبرية في لاس كوليناس فيرديس، حتّى يقرّر رومان مصيري. لا أستطيع أن أواجه عشر سنين في السّجن الإسباني، أفضّل الموت.

ثم أضاف وقد بدأ الهلع يتسلّل إلى صوته:

ـ بوسعك أن تقنعيه بألاّ يوجّه أصابع الاتّهام إليّ. فهو لا يصغي إليّ. أنت تعرفين طبعه، فلسانه أشبه بالسوط وعقله أقرب إلى المتاهة. اكتشاف أفكاره أمر مستحيل! لكنّ اختراق ذهنه محال.

فوعدته كاسي على مضض: «سأتّصل به هذا المساء». لكنّ أملها كان قد خاب فعلاً من أخيها ومن أخطائه التي جرجرتها إلى وحله.

ـ سأتّصل به من الشّقة، فالمحل مزدحمٌ في الوقت الحالي.

في الواقع، كانت التنزيلات الصيفية تشهد يومها الأوّل، والمكان يضجّ بالباحثين عن صفقةٍ هنا وهناك. فراحت مديرتها وصديقتها العزيزة سيندي كورفيلد تلوّح لها باهتياج شديد كي تنهي مكالمتها وتمدّ إليها يد المساعدة. فما كان منها إلاّ أن سارعت تحذر روي بصوتٍ متوتّر:

ـ لا أظن أن رومان سيصغي إليّ أيضاً على الأرجح. إن سألته ألاّ يتّهمك، فمن المحتمل أن يقوم بالعكس ليغيظني وحسب. ما كان يجدر بك أن تتصرّف بحماقة..

ـ أعرف ذلك، وأنا آسف. لكن حبّاً بالله يا أختي، لن يجدي الهاتف نفعاً! كلّ ما سيفعله هو إقفال السّماعة في وجهك. أنت تعرفين تمسكه بكرامته! تعالي إلى هنا. عندئذٍ، لن يتمكّن من صدّك، وسيصغي إليك. في الواقع، سيكون مضطراً، أليس كذلك؟ تبّاً يا كاس. ما زال الرّجل مغرماً بك، حتّى وإن هجرته!.

إن ما يقوله هو المستحيل بعينه. فرومان فرنانديز لم يغرم بها يوماً، ولم يتزوّجها إلاّ لأنّه تصوّر أنها ستكون له زوجة مناسبة مع الوقت. أما بالنسبة إليها؟ لم تفكّر في ذلك الموضوع.. قبل ثلاث سنواتٍ كانت ساذجةً وحساسةً إلى أبعد حدّ. كان رومان قد مسح العبرات من عينيها، ووهبها النجوم. لكنّ تلك النجوم أفلتت ليلة مراسم العرس بالذّات.

أمّا اليوم، فهي أكثر نضجاً وترفض أن تولي أخطاء الماضي تفكيرها.

www.elromancia.com

ولأنها اعتنت دوماً بتوأمها رضيت أن تنفذ رجاءه. صحيحٌ أنّ روي قد لا يستحقّ ذلك، لكنّها تدرك مشاعر الخوف والوحدة التي تتحكّم به، لذا ستفعل ما بوسعها آملةً أن يفي صنيعها بالمطلوب.

وهكذا، انتظرت وهي ترفض أن تكون أسيرةً للتّململ. وها قد مضت حوالى ثمانية واربعين ساعةً على نداء الاستغاثة الذي أطلقه أخوها، درست فيها كلّ ما تستطيع منحه لقاء حرية روي.

كانت واثقةً أنّ ما في جعبتها من منحٍ لا يمكن أن ينبذه إلا رجلٌ وحشيّ قاسي القلب. حاولت أن تتناسى أنّ هذه الصّفات تنطبق تماماً على رومان، لكنّ قلبها، وخلافاً لكلّ توقعاتها، انقلب رأساً على عقب ما إن دخل الغرفة، وأغلق لوح الباب الثقيل ووراءه.

كان يعتمر قبّعةً سوداء مستقيمة الحرف، وقد أمالها إلى الأمام حتى غطّت عينيه. أما قميصه وسرواله الأسود، فكساهما غبار السهول.. لقد جلب معه إلى الغرفة العتيقة عبق الجلد والرّجولة والوهج الأبيض. تذكّرت كاسي هذه الغرفة التي كانت تستخدم كمستودعٍ للأثاث البالي إبّان الشهور الطويلة التي قضتها وحيدةً في هذا البيت.

لم تحاول قطّ أن تدّعي أنه لم يكن أوسم رجلٍ عرفته ولا أكثرهم تأثيراً في النفوس، فلا فائدة من هذه الادّعاءات. كلّ ما رجته هو أن تبدو امرأةً بسطت سيطرتها واستأصلت من حياتها العيوب كلّها، وأهم عيب في حياتها كان هو.. من هنا، غضّت النّظر عن التأثير الذي أحدثه.

وقفت وهي تذكّر نفسها بأن الشكل يذهب أدراج الرياح إن انطوى على قلبٍ متحجّرٍ، يفتقر للحب. كان طولها يقارب خمس أقدام وخمسة إنشات، بالإضافة إلى ثلاثة إنشات يزوّدها بها كعبان طويلان رفيعان. فبدت مناسبة لأيّ رجلٍ، ولو كان طوله ستّ أقدامٍ ولو كان ذا عضلات فولاذية وعمره يفوق عمرها باثنتي عشرة سنة.

أفصح رومان بصوتٍ أجش، فيه من التأكيد ما يثير:

ـ قيل لي إنّك هنا.

رغم كلّ ما حدث، ما زال بإمكان صوته أن يبعث القشعريرة في بدنها.

ـ آسفٌ لأنّني جعلتك تنتظرين.

خلع عنه قبّعته وألقاها بفتورٍ في الغرفة، فطارت حتّى حطّت على طاولةٍ صلبةٍ تحت إحدى النّوافذ المغلقة. وإذا بشعره الناعم ينكشف للعيان، شعرٍ أقرب إلى الطّول.. له من جناح الغراب سواده.. وكانت عيناه بلون الفحم الرّمادي الدّخاني اللون.. وعيناه هاتان قالتا لها إنه لم يكن نادماً قط.

لم يراع رومان مشاعرها مرّةً إبّان الفترة التي عاشا فيها معاً فهل من سببٍ واحدٍ في هذا العالم يدعوه إلى المراعاة الآن؟.

أمال رأسه بتساؤلٍ من غير أن يفترّ فمه المثير والقاسي عن ابتسامة:

ـ ما الذي جاء بك؟ أيعقل أنّ سنةً من الفراق قضيتها في محلّ ألبسةٍ من الدّرجة الثانية، في بلدةٍ صغيرة لم يسمع بها أحدٌ، بين أرجاء شقةٍ صغيرة قذرة، قد نبّهتك إلى أنّك أفضل حالاً مع زوجك؟ أهذا هو السّبب؟.

كان قد باعد بين رجليه، وثبّت إبهاميه في حزام جينزه. وتلك الملامح التي لا تنسى قد أخفت وراءها أفكاراً متنوعة عبرت عقله البارد المتحجّر.

لم تكن تريد أن تنظر إليه، لكنّها كرهت أن تبدو بمظهر الجبانة أو المخادعة، وهذا أسوأ، وكأنّ عليها أن تخفي سراً حقيراً. أما هذه الحرارة الداخلية التي راحت تشتعل في شرايينها بعنفٍ ما بعده عنفٍ، فهي نار الغضب لا أكثر.

كانت غاضبةً من استخفافه السّاخر بعملها وبيتها، غاضبة وهي تكتشف بمرارة أنه كان يراقبها مراقبةً شديدة طيلة الأشهر الإثني عشر

الماضية، من غير أن تدرك ذلك.

لكنها قرّرت ألا تتعب نفسها لتخبره أن المحلّ الذي تديره هي وسيندي في أوج ازدهاره، وأنّ الشقة، على ضيقها، بعيدةٌ كل البعد عن القذارة، وقررت عوضاً عن ذلك أن تلبس قناع البرودة والغموض قبل أن تخبره:

ـ جئت لأن روي في مأزقٍ ويحتاج إليّ.

ـ أتساءل لمَ لا يدهشني هذا؟

كان يتكلّم بتشدقٍ وتهكم. لكنّ ومضة من الكآبة ظهرت على تقاسيمه الوسيمة وأنفه الارستوقراطي. فعرفت حينئذٍ أنها، بطريقةٍ أو بأخرى، ضربت على وترٍ حسّاس.. رمقته بعينين ضاقتا بلونٍ أسمر مصفرّ، وراحت تترقّب ردّة فعلٍ إضافية، أو أيّ حركةٍ تستغلها لمصلحتها. لكن حين خاب أملها ولم يقابلها إلاّ الصّمت الثّقيل والمزعج، ردّت نظراتها إلى الكرسي المستقيم الظهر، وتهالكت بين ذراعي المقعد.

عقدت ساقيها الطويلتين المكسوتين بالحرير، ثم رمقته وهو يراقب تلك الحركة الأنيقة والمثيرة. وإذا بها تدرك وشعورٌ بسيط بالصدمة قد ألمّ بها وحبس أنفاسها، أنّ عينيه المتأملتين مرّتا بتنورتها الضيّقة، صعوداً نحو ساقيها، في نظرةٍ راضية عمّا تقع عليه تماماً.

الإثارة! لن تسمح لتفكيرها أن يسافر نحو تلك المشاعر.

قالت برباطة جأشٍ وهي تأبى أن تعكس التوتّر الذي انتابها فجأةً:

ـ أتفهم مقدار غضبك من روي. فغضبي لا يقلّ عن ذلك مقدار ذرّة. وما أقدم عليه لا يمكن وصفه بأقل من مخزٍ.

ـ إذاً، لأوّل مرّةٍ في حياتنا، يا زوجتي، نحن متّفقان.

لم يكن هذا الجواب السريع اللاذع بعونٍ لها.. فأخذت نفساً وهي تفرك أصابعها ببعض، ثم أضافت:

ـ لكنّ سجنه ليس الحلّ، لا شك في أنّك تعرف ذلك. سيقضي على بقية حياته، فهو ما زال في الرابعة والعشرين من عمره. ولا تنس اسم العائلة المبجّل فرنانديز.

تخلّل صوتها ألمٌ صغير لم تستطع أن تخفيه. فأهمّ الأحاديث التي كانت تدور بين الدّونيا إلفيرا والعمّتين هي التفاخر بسلسلة النّسب الرفيعة، وامتلاك العائلة للأراضي الواسعة، ومكانتها في المجتمع.

ولا شكّ في أنّهن أسهبن في تلك الأحاديث تأكيداً على أنّها غير جديرةٍ أبداً بأن تكون زوجة وريث المملكة!.

ـ أتقترحين ألاّ يُعاقب على تلك الجريمة؟.

كان رومان يتحرّك الآن، بكياسةٍ متكاسلة تميّزه وحده. بدا عريض المنكبين، قويّ العظام، طويل الساقين.. تقدّم نحو النّوافذ، وفتحها حتّى تدفق نورٌ مزعج إلى الغرفة. أمّا هي، ففكرت في أنّه على الأرجح يودّ أن يراها بصورةٍ أوضح.

وقف وهو يولي ظهره للنافذة، وعلى وجهه ظلّ. كم بدا منظره غامضاً! لكن هل هذا جديد؟ فما من مرةٍ استطاعت أن تتوغل إلى أفكاره.

لكنّ هذا غير مهمٍّ الآن، فما كان يمثله لها ذهب أدراج الرّياح. لقد هجرت زواجهما العقيم قبل سنةٍ، وبوسعها أن تباشر بمعاملات الطلاق في غضون سنةٍ. كلّ ما يهمها هو انتشال أخيها من ورطته، ثمّ العودة إلى انكلترا.

قدّمت إليه العرض الّذي ظلّت تفكّر فيه منذ هاتفها روي:

ـ إن أحجمت عن اتّهامه، اصطحبته معي إلى الوطن. وستكون مغادرته اسبانيا إلى أجلٍ غير مسمّى خير عقاب له. فهو يحبّ هذا البلد.

ردّ رومان بحقدٍ: «لا أظنّ ذلك. لقد سمح له زواجك بالاتّصال بإحدى أثرى الأسر في الأندلس. وهذا ما يحبّه في اسبانيا. فذلك يمنحه شعوراً بالأهمية».

يا له من ساخر! كبتت كاسي هذا الاتّهام الغريزي. فلمَ تضيّع وقتها ومجهودها في محاولةٍ لإثبات الواقع الجليّ؟ لم يتزوّجها إلاّ لأسبابٍ تدعو للسّخرية وحسب. لم يتغيّر شيء. رغبت في التهجم عليه، لكنّها رفضت أن تسترسل في ذكرياتٍ قد تقضي على الاتّزان الذي اكتسبته بعد سنةٍ من البعد عن زوجها البغيض وعائلته المتكبرة. لقد زال أيّ شعورٍ كانت تكنّه له في ما مضى، وباشرت بحياةٍ جديدة حيث الجميع فيها يحترمونها ويحبونها ولا يُشعرونها بالدونية.

قوّمت كتفيها، وناشدت الحظّ في داخلها، ثمّ ضربت ضربتها:

ـ أترغب حقاً في هذه الوصمة لاسم العائلة المبجّل؟ لا أظنّ ذلك، بطريقةٍ أو بأخرى. تخيّل الشّائعات التي ستبدأ ما إن ينتشر خبر سجن صهر رومان فرناندیز.

تحرّك حتى أصبح أمامها. ثم مال فوقها بقامته ونفسه وقوّته التي أخافتها على نحوٍ فجائيّ وغير سارّ بتاتاً.

ـ إنّ التّعاطف كلّ التعاطف سيكون مع عائلتي لارتباطها مع عائلتك فالجميع يعرفون أننا داعمون لقواعد القانون، مهما كان الثّمن. عليك أن تقرّي أنها صورةٌ نبيلة.

هنا ابتسم لكنّ عينيه ظلّتا تشعّان مزيجاً من القسوة والبرودة، ثمّ أضاف:

ـ يتحتّم عليك أن تجدي أسلوباً أفضل من هذا.

كبتت كاسي تنهيدةً، وكبحت رغبةً في صفع هذا الوجه المتعجرف الجميل. لا فائدة من مناشدة طيبته، والأمل معدومٌ في اختراق حصنه المنيع. فما من مرّةٍ نجحت في التوّغل إلى أعماقه، حتى إبّان الأيّام الأولى لزواجهما.

فما كان منها إلا أن قدّمت عرضاً آخر بأملٍ يكاد ينعدم: «سأردّ لك كل بيزيتا سرقها».

لم تكن تملك أدنى فكرةٍ عن حجم المبلغ. فروي لم يكن واضحاً في هذه النّقطة، وهذا أقلّ ما يمكن أن تصفه به. قد تقضي العمر وهي ترد المبلغ، لكنّ الأمر سيستحقّ ذلك. رفعت إليه عينها اللّتين باتتا الآن تشعان بالتّحدي وقالت:

ـ ستستردّ أموالك، ونبتعد أنا و روي عن ناظريك. وما هي إلا سنة حتى تنسى عائلتك العزيزة أنها كانت يوماً مرتبطة بعائلتي! ثمّ...

أخذت نفساً وقد فاجأها الألم الذي عصر قلبها بقسوةٍ:

ـ... تستطيع أن تتزوّج ممن تلائمك تماماً، تلك التي لطالما لازمتك، دلفينا، فتسعد أمّك وعمّتيك، كما تسعد دلفينا التي كانت تغازلك، وأنت تتملّقها بطريقة تثير اشمئزازي!.

وسرعان ما اجتاحها النّدم على تلك الكلمات التي انطلقت من غير حذر، كاشفةً عن مشاعر متزعزعةٍ آلمتها في ما مضى. ولكن أوان النّدم قد فات، وقد تغلّبت اليوم على ألمها، وأصبحت لا تهتم أبداً بمن سيتزوّج هو بها لاحقاً. غير أنّ في غروره من العظمة ما يصعب عليه تصديق هذا الواقع البسيط، خاصّةً أنه رفع حاجبه البنيّ اللّون، وأمال رأسه كعادته في تلك المواقف.

كان يظنّ أنّ الغيرة تملكتها وأنّها ما زالت تكنّ له شعوراً ما. وهذا ما لا يحتمل!.

سدّدت كاسي نظرةً إلى ساقها، وراحت تملّس الثنايا الخيالية في تنورتها، بيدين متوتّرتين. كانت قد بدأت تصاب بصداع، فيما اضطراباتٌ جمّة في معدتها. فزيارتها لم تحقّق حتى الآن أيّ هدفٍ باستثناء استعادة ذكرى السنتين الأكثر تعاسةً في حياتها. لكنّ من الضّروي أن تحاول رغم كل ذلك. فما كان منها إلاّ أن أمالت ذقنها، وتكلّمت:

ـ اتّفقنا؟.

محالٌ أن تناشده، ولو كان ذلك من أجل توأمها. فلطالما ناشدت

رومان في الماضي، من دون أيّ نتيجةٍ. ومن الصّعب أن تخضع لهذه التّجربة المذلّة ثانيةً، أو تضع كبرياءها على المحكّ، كي يدوسها كما يحلو له.

أجاب بعنادٍ: «لا. على الأقل ليس الاتّفاق الّذي أوجزته. أنت تدهشينني يا كاسندرا».

ثم أضاف وكأنّه يشكّك في سلامة عقلها:

ـ حين تزوّجنا، وظّفت أخاك في مكتب حسابات جيريز، لأنّه، وفقاً لرأيه، لم يكن يرغب في الذّهاب إلى المطار، والعودة إلى انكلترا من دونك، كما أنّه لم يكن يريد السّير على خطى أبيك، ودراسة الطّب. وفي الواقع، كاد يذرف الدّموع ذرفاً حين ذكّرته أنّ تلك كانت رغبة أبيه.

ـ وقتذاك لم يكن قد بلغ الحادية والعشرين من عمره، وكان يجهل كيف يريد أن يعيش حياته. أضف إلى أنّه فقد أبيه منذ مدّةٍ قصيرة، واضطر لمواجهة الواقع الّذي يقضي ببيع منزل العائلة تسديداً لديون أبي. على عكسك، لم يولد وفي فمه ملعقةٌ من ذهب، ولم يكن مؤمناً إيماناً راسخاً بأنه أرفع شأناً من كلّ من على الكوكب!.

تجاهل انفعالها، وكأنّ الكلمات المشتعلة غضباً لم تلفظ قط..

ـ لقد منحت روي وظيفةً بأجرٍ كافٍ، كما دفعت إيجار شقةٍ، لأنّه راح يتذمّر بعد مدةٍ من منزل الأسرة في جيريز، وأراد الاستقلال عنه. فردّ إليّ بالجميل بالتأخّر عن مواعيد عمله، والرّحيل في وقتٍ مبكّر. هذا إن فكّر في المجيء إلى المكتب. وأخيراً، خانني وعائلتي باختلاس مبلغٍ لا بأس به من المال.

هزّ كتفيه باستهجانٍ، وكأن الحديث بدأ يبعث فيه الملل، ثمّ أردف:

ـ لا أعتقد أنّ إنقاذه من عواقب جريمته وتسديد المال الّذي سرقه سيصلح من طبعه.

أجفلت كاسي التي أقرّت مكرهةً أنه كان محقّاً بطريقةٍ أو بأخرى. لكنّها تعرف أخاها أكثر بكثير من رومان، وتعرف أنّ فترةً في السّجن لن تجدي نفعاً في تحميله المسؤولية كالرّاشدين.

رفعت أصابعها إلى صدغيها. كان الألم يزداد سوءاً. لقد قامت بهذه الرحلة، وواجهت رومان ثانيةً، وذاقت الذّل وهي تراه لا يبالي بعرضها وكأنّه عرضٌ مجنون، كما أنّها لم تنجز شيئاً بتاتاً. أحسّت وكأنّه يمضغها قبل أن يبصقها، ولم يكن ذلك إحساساً لطيفاً. وما لبثت أن أجبرت نفسها على الوقوف، وأعلنت بصوتٍ أجش:

ـ إن كان هذا كلامك الأخير، فسأرحل. لكنّي أود رؤية روي أولاً. سأنتظر هنا حتّى يفرغ من عمله.

لا بدّ أن قساوته لن تبلغ حدّ منعها من رؤية أخيها! عليها أن ترى توأمها، لتعلمه أنّها بذلت أقصى جهدها، ثم تنصحه بتقبّل العقاب كرجلٍ، وتقنعه بالعودة إلى انكلترا، إليها، حين يصبح حرّاً. وستقوم عندئذٍ بما في وسعها لتساعده على البدء من الصّفر.

قال باستخفاف: «كنت قد بدأت أظنّ أنّك اكتسبت قوةً في الشخصية، لكن يبدو أنّك تستسلمين بسهولةٍ».

كانت قطرات العرق ترشح من بشرتها. فثنت ذراعيها على صدرها، وكأنّها تحاول أن تكبح جماح المشاعر التي انتابتها.

ثم ردّت وآمالها متشبثة بما بقي لها من رباطة جأش:

ـ أمّا أنا، فأظنّ أنّك تجهل عمّا تتحدّث. ما عساي أفعل إن كنت ترفض الاستماع إليّ؟ هل أجلس في مقعدي كطفلة صغيرة مهذّبة..؟

علّق رومان بتراخٍ أوقف الشعر في جسدها: «سبق أن استمعت».

أحست بوجهها يتورد، ثم أجابت:

ـ ربّما، لكنك ما زلت ترفض التفكير في كلامي!.

رفع كتفاً عريضةً في استهجانٍ خفيف وردّ: «لم أكن أدرك أنّه

إلزاميّ».

كان لا يحتمل! شدّت رباط حقيبتها إلى كتفها وهي تكبت ثورة غضبها. لا بد أن ترحل! لكنّ الأقوال أسهل من الأعمال. فبخطوةٍ واسعةٍ رشيقة، وبيدٍ على ذراعها، أوقفها مكانها.

لم تكن تريد منه أن يلمسها. فحرارة يده اخترقت قماش كمّها الرقيق، لتسافر بها نحو ذكريات كرهت أن تستعيدها. لكن لسانها انعقد، وقبل أن تستطيع فكّ عقدته، قال بنبرةٍ انحرفت نحو النعومة:

ـ لقد ازددت وزناً.. في السنتين اللّتين قضيناها معاً، ذكّرتني دائماً بالعود. أحياناً كنت أقلق عليك.

يا له من كاذب! فالقلق على سعادتها وصحّتها لم يكن من ضمن أولويّاته، ولعل قلقه عليها لم يكن يقع إلا في أسفل القائمة!.

اتّهمته باحتقار: «أنت كاذبٌ! من كان يقلق بشأن خسارة وزني هن أمّك وعمتاك لا غير. ووفقاً لـ دلفينا الغالية، السبب هو أنني فقدت الشهية إلى الطعام، وبالتالي القدرة على الإنجاب. وهن أخبرنني أنهن لن يتقبلنني إلا إذا منحتك طفلاً».

تابعت، وقد تملّكها سخطٌ عنيفٌ لا مجال للتّحكم فيه:

ـ كان يجدر بي أن أخبرهنّ أنني لا أفقد وزني إلا لأنّي كنت تعيسة إلى حدّ اليأس، وأنّي لا أنجب إلاّ لأنّك ما لمستني قط!.

أفلتت الكلمات اللاّذعة من فمها من غير أن تندم على حرفٍ. حان الوقت ليعرف رومان الحقيقة.

توتّرت شفته المثيرة وأجاب: «ظننتك لم ترغبي في ذلك. أنسيت أنّك نبذتني»؟.

بدا أنه لا يحتاج إلى جوابٍ، غير أنه كان مستعداً للانتظار طويلاً حتّى ينال واحداً. لكنّها تختار الموت على أن تقرّ كم ندمت لأنها أبعدته عنها وهربت منه. ندمت على الشجاعة التي افتقرت إليها والتي بسبب انعدام

وجودها لم تخبره بحقيقة مشاعرها، فقد تاقت بعدما رفضته إلى لمساته، ولكم آلمتها لا مبالاته وغيابه الطويل.

حفّ فمها وهي تشاهد العينين تومضان بلون الفحم وقد أسدل عليهما ستاراً من الرموش السوداء الكثيفة، فيما راح يتأمّل بتراخٍ حناياها التي اكتسبت تقوساتٍ مثيرةً مؤخّراً. ولعلّه لم يقدم على هذا إلاّ انتقاماً من عنادها الصّامت. كان جسدها يشتعل حرارةً في كلّ مكانٍ تقع عليه نظراته. حاولت أن تشيح بوجهها بعيداً وهي تدرك أنّ صوتها استحال أجشّ في حلقها. لكنّ سؤاله الذي بقي يتيم الجواب، والنّظرة الحميمية الفاضحة التي كان يرمقها بها، جعلاها تشعر بالحرج والحيرة.

ماذا تراه يدرك عن حقيقة شعورها؟ هل يدري بما كانت تشعر وهي ترى أنها غير مناسبين لبعضهما بعضاً.. هل يعرف الذل الذي شعرت به لأنّه قرّر أنّها باردة ولا تستحقّ منه زيارتها ليلاً؟.

اشتدّت أصابعه على ذراعها، فيما تراخت يده الأخرى برفقٍ على خصرها. وما لبث أن سألها بصوتٍ مثير خطر:

ـ أتساءل إن كانت سنةٌ من البعد قد أحدثت فرقاً. لعلّه يجدر بنا أن نكتشف ذلك. أستظلّين تتجنبينني إن جئتك ليلاً؟.

ـ إيّاك!.

سحبت يدها بقوّةٍ وتصلّبت في مكانها. كانت قد علّمت نفسها ألا تبكي، ولن تنسى الآن هذه الدروس القاسية.

في يومٍ من الأيّام، يبدو الآن بعيداً بعد الدهر، ظنّت أنها تحبه، تعبده بل تؤمن به كأكثر الرّجال كمالاً على وجه الأرض. أما الآن، فهي تدرك الحقيقة. لن يقوى على التأثير فيها بأيّ شكلٍ من الأشكال.. أرجعت رأسها إلى الوراء وقالت بتحدٍ:

ـ إن كنت تظنّ أنّك ستجبرني حتّى تشبع غريزتك وفضولك، فأنت مخطىء.

أبعدت عنها يديه الواحدة تلو الأخرى بقوّة وفجائية، ثمّ توجّهت نحو الباب وهي تشدّ بإحكام على شفتيها، لتمنع نفسها من الصّراخ وقد ضاقت بكلّ تلك الذكريات المؤلمة. وتناهى إليها صوته بتشوّق من ورائها:

ـ كنت أفكّر في خطوةٍ أكثر تحضّراً يا زوجتي. شاركيني سريري طيلة الأشهر الثلاثة المقبلة، وأشبعي... فضولي وغريزتي، فأمتنع عن اتهام أخيك.

***

٢ ـ في القفص من جديد

حين طال الصّمت القصير سألها رومان: «أتحتاجين إلى وقتٍ للتفكير؟».

تناهت إليها نبرته رقيقة، فيها مزيجٌ من التسلية والاحتقار، فانتشلتها من الصّدمة التي غرقت فيها.

ـ لا يمكن أن تكون جادّاً!.

أخافها صوتها المتردّد الخفيض. ولكنها سرعان ما ابتلعت ريقها بتشنّجٍ وأعادت الكرّة.

ـ لجوؤك إلى التهديد من أجل جرّ امرأةٍ إلى سريرك يعني أنك، بلا شكّ، يائسٌ جداً!.

لا بدّ من أن نبرتها رجّعت هذه المرّة صدى الازدراء الّذي أحسّت به. فما إن فرغت من كلامها حتّى ضاقت عيناه وتصلّب فكّه. لطالما عرفته رجلاً شغوفاً، شغوفاً بعمله، بالأرض التي يحبّها، باسم عائلته، بنسائه. إنّما لم يبدِ شغفاً تجاهها قطّ، وكلاهما يعلمان ذلك. ويبدو أنّ توبيخها لا شكّ جرح كبرياءه الإسبانية الفطرية الرهيبة.

كانت تحسّ بقشعريرة تسري في جسدها، وكأنّ أطرافها قد تجمّدت..

ـ ليس جسدي بسلعةٍ تخضع للمقايضة.

www.elromancia.com

لا مجال لقبول عرضه على الإطلاق. ولكن من الواضح أنه لم يكن يشاطرها الرأي، إذ سرعان ما قال بصوتٍ خشن:

ـ لكنّه كان سلعةً في الماضي، إن أسعفتني الذاكرة: جسدك في سريري مقابل خاتم في إصبعك، وحياةٍ مترفة وتسديد ديون أبيك. ولا ننسَ أيضاً حقّ الاختيار الذي ناله أخوك فأساء استعماله كما نعلم جميعاً اليوم. ومعك كذلك، تعرّضت للخداع ووجدت نفسي أتقاسم السّرير مع كتلةٍ من الجليد. جعلتني عروسي أشعر بأنني حيوان مفترس. ولا أرغب في تكرار هذه التجربة ثانيةً.

إذاً، لقد تركها وحيدةً، من غير أن يفهم أنّها كانت خائفة.. ولكنها لم تكن تخاف منه، لأنها كانت تحبه، بل كانت تخاف أن يخذلها هذا الرّجل الجذاب ذو العاطفة والخبرة الّذي ملكها بابتسامةٍ واحدةٍ من هاتين الشفتين، وبنظرةٍ واحدةٍ من تينك العينين المتّقدتين انفعالاً. لقد كانت تخاف الرّجل الذي لم يفهم أن مجرّد استياء عائلته من اختيارها زوجة له، دفعها إلى الاحساس بأنّها أقل شأناً ومستوىً.

لكنّها لم تقوَ على أن تشرح كلّ هذا، أو على الأقل أن تحاول إخباره بحقيقة شعورها. طردت كاسي هذه الفكرة الدخيلة من رأسها، ثمّ أغمضت عينيها وهي تسحب نفساً عميقاً من الهواء. ولمّا فتحت جفنها، كان يفتح الباب، وجسده المتين متراخٍ رشيق.

أيطردها؟ أهو في شوق إلى التخلّص منها بعد أن عرف أنّها لن تقبل بعرضه الشنيع؟.

تُرى، لمَ شعرت بارتياح غريب حين قال لها: «لا أقترح عرضاً خارجاً عن حدود الأخلاق، فأنت زوّجتي».

حاولت أن تذكّر نفسها بالصدمة التي عاشتها في الأيّام الأخيرة، وأن تجمع الشجاعة الكفيلة بمواجهته ثانيةً. ثم ذكرته بدورها بموقفٍ دفاعيّ:

ـ نحن منفصلان.

أعلن بلا مبالاةٍ: «لم تكن تلك رغبتي».

حبست أنفاسها وهي تتبعه على طوال الممرّ المرصوف بالحجر، الذي يصل بيت المزرعة القديم بالجديد. كان المنزل الجديد أكثر بعثاً للراحة، وقد بُني في عهد أبيه. لا شكّ في أنه سيفتح باب التفاوض، ولا شكّ في أنها ستقنعه بأنّ عرضه القاسي ليس عملياً بكلّ بساطة، ثم تسأله أن يعيد التفكير في اقتراحها الأصلي.

ـ رومان!.

لم تستطع أن تكبت نبرة اليأس في ندائها. فمستقبل أخيها يعتمد على تغيير رأي زوجها.

ـ حتى إن كنت أريد العودة إليك...

وهذا ما لم تكن تريده إطلاقاً!.

ـ ... فأنا عاجزة. عليّ أن أؤمن مصدر رزقي وأعود إلى عملي. أكّدت لسيندي أنّني لن أغيب إلا لأيّامٍ. وهذه الفترة من أكثر الفترات ازدهاراً.

تسمّر في مكانه، ثم التفت إليها وقد بدا المدخل المؤدّي إلى الردهة الأساسية أشبه بإطارٍ يحيط بشكله المؤثّر. وما لبث أن هزّ كتفيه العريضتين بلا مبالاةٍ.

ـ لا مشكلة. سأهاتف ابنة عمّي وأشرح لها. ستتفهّم الأمر.

طبعاً ستتفهّم! فسيندي تحبّ رومان كثيراً، وهي لم تصدّق أذنيها حين عادت كاسي أدراجها إلى انكلترا، وفي جعبتها خبر انهيار زواجهما.

لم تكن قرابتهما بالحميمية التي ادّعاها رومان، فجدّة سيندي كانت الأخت الكبرى للدّونيا إلفيرا. وكانت قد تزوّجت رجلاً من اسكتلاندا، فعاشا في انكلترا، حيث أبصرت النّور والدة سيندي. ومع أنّ عائلة فرناندير لم تعترف بزواجها بأجنبي، إلاّ أنّ الدّونيا إلفيرا والعمّتان بقين على اتّصالٍ دائم بها.

أمّا كاسي و سيندي، فكانتا صديقتين حميمتين منذ لقائهما الأوّل في المدرسة وهما في الخامسة من عمرها. وقد لجأت كاسي إليها وإلى عائلتها المحبّة حين قضى والدها ووالد روي من جراء نوبة قلبية.

أظهرت العائلة دعماً ما بعده دعم. فحين تقرّر بيع المنزل الذي عاشت فيه كاسي وأخوها وأبيها الأرمل، تسديداً لديون الوالد، اقترحت والدة سيندي بعدما سمعت الخبر الباعث للصّدمة:

ـ إنّنا ننوي أن نقضي العطلة في إسبانيا لزيارة أقارب أمّي. فلمَ لا تأتين وروي معنا؟ أعلم أنّهم سيرحّبون بكما حين أشرح ظروفكما. وستمنحكما هذه العطلة فرصة التّفكير في ما حدث.

هكذا، التقت رومان. هكذا، بدأت المغازلة القصيرة، المختلفة على نحوٍ غريب، كما يدرك المرء الآن. أما البقية، فمجرّد ماضٍ، تمنّت لو أنّ التاريخ لم يكتب صفحاته قط.

سألها: «هل من اعتراضاتٍ أخرى؟ وهل قضاء ثلاثة أشهر معي باهظٌ جدّاً؟».

باهظٌ جدّاً، جدّاً! لقد اقترف روي خطأ، ولا مجال ليسامحه رومان إلاّ بمعاقبتها مكان أخيها. كانت ليلة زواجهما إخفاقاً تاماً. ورغم أنّها شاركته فراش الزوجية، كانت خائفة من أن تخيب أمله ولهذا أصبحت كالصخر بين ذراعيه، لتتأكّد من أنها لا تريد معاودة الكرّة. فالخوف من فشلٍ جديد جعلها تبعده كلّما حاول احتضانها في كلّ ليلةٍ من اللّيالي التّالية. لِمَ يجبرها إذاً على مشاركته الفراش الآن إن لم يكن ذلك عقاباً مفروضاً؟.

أو يسأل عن الاعتراضات؟ إنّها كثيرةٌ كثيرة! بلّلت شفتيها الجافّتين بطرف لسانها، وراحت تفكّر في أقل الاعتراضات إهانةً أو ابتذالاً.

ـ جئت إلى جيريز وأنا أنوي أن أقضي ليلةً واحدة قبل أن أعود إلى انكلترا. فكيف أبقى وأنا لا أملك من الثياب إلا ما ألبسه حالياً؟

ارتسمت ابتسامة خفيفة على شفتيه لم تنعكس في عينيه، ثمّ أجاب:

ـ بإمكاننا أن نجد محلاً يبيع ملابس نسائية في ناحيةٍ من نواحي إسبانيا. ألا تعتقدين ذلك؟ وبالمناسبة يا كاسندرا...

ضاقت عيناه حتى أضحتا لوزيتين بلون الكهرمان الأسود الضبابي، قبل أن يردف:

ـ ... لست مستعدّاً لمزيدٍ من المناقشة. إمّا أن تقبلي عرضي وإما أن ترفضيه. فكّري فيه هذه اللّيلة وأعطيني إجابتك غداً صباحاً.

التفت مجدّداً، ثم قال لها وهو يدير لها ظهره:

ـ سأتدبّر من يدلّك على غرفةٍ تستخدمينها اللّيلة. العشاء في التاسعة كما تذكرين، وبعد ذلك ستجدين الوقت للتكلم مع أخيك.

راحت تراقبه بكآبة وهو يمشي على طول الرواق الطلق.. لقد اعتقدت حقاً أنها اليوم تتميز بنضوج يمكّنها من مواجهة تسلّطه المتعجرف، وأنّها لن تسمح له مجدّداً بأن يملي عليها أوامره.

بعد أن أرشدتها إحدى الخادمات الجديدات، قبل سنةٍ تحديداً، إلى غرفة نوم تطلّ على فناء الدّار، أقرّت على مضض أنّ مقابلتها مع رومان استنزفتْ منها القدرة على تدبير سيّارة أجرة، والذّهاب إلى جيريز، حيث تعثر على مكانٍ لقضاء اللّيلة.

لكنّها تستطيع الآن أن تضمن قضاء بعض الوقت مع توأمها. وهي مستعدّة لمجالسة الدّونيا إلفيرا وعمّتيه البغيضتين في أثناء العشاء من أجل الحصول على فرصةٍ تنفرد فيها بروي بعد ذلك. فلو أصرّت على الرّحيل الآن، سيحرص رومان على ألا تقع عيناها على أخيها.

عليها أن تعتذر منه شخصياً بعد فشلها في مهمّتها، وتخبره أنّ رومان سيدّعي عليه. إنّ مجرّد التّفكير في ذلك يشعرها بالاشمئزاز. فلطالما اعتنت به منذ وفاة أمّهما قبل بلوغهما الثامنة بأيّام قليلة.

لكنّ الثّمن الّذي يطلبه رومان باهظٌ جدّاً، فقد عملت جاهدة لتقلب

حياتها رأساً على عقب. كيف يتوقّع منها أن تأسر نفسها في السّجن الّذي هربت منه قبل عام؟.

ألقت على الغرفة نظرةً خاطفة من وجهّها الشاحب فإذا هي شبيهة كثيراً بتلك التي استخدمتها حين قضت سنتيّ زواجها في هذا المكان. كان رومان قد هجرها بكلّ بساطة، تاركاً إيّاها مع أمّه وعمّتيه فيما هو منصرفٌ إلى أعماله.

هزّت كتفيها وهي تودع ذكرياتها، ثم راحت تفرغ حقيبتها. فأخرجت ثوباً للنوم من القطن، وثياباً داخلياً، هذا إضافة إلى مساحيق الزينة والصّابون المعطر. كان قلبها يحوم حول مكانٍ ما في الطّابق السّفلي، لكنّها ما لبثت أن اتّجهت نحو الحمّام المجاور راغبة في الاستحمام. وتمنّت لو أنّها وتوأمها لا يسمعان ثانية خبراً عن رومان فرناندیز.

كان المكان مرتّباً باتقان، يضمّ عشراتٍ من الشّموع موضوعة في أوعيةٍ من البلّور الشفاف. فأضفت هذه على لون الحمّام الفضيّ توهجاً خافقاً دافئاً. لطالما كان العشاء مناسبةً رسمية في لاس كولیناس ڤيرديس، وقد أُخرجت اللّيلة الأموات الفخمة كلّها، سيّما وأنّ ضيفين سيشاركان مائدة العشاء.

كانت هي الضيفة غير المرغوب فيها. أما دلفينا الجذّابة، فالمفضّلة بين قريبات رومان منذ مدّةٍ قاربت الدّهر في نظر كاسي.

جلس رومان على رأس المائدة الطويلة، فيما المرأة الاسبانية إلى يساره. بدت دلفينا بالأناقة التي لطالما عهدتها كاسي. أما شعرها الأسود فكان مقصوصاً حتّى الفكّ بتسريحةٍ عصرية. وقد كسا جسمها الرشيق ثوبٌ ياقوتي اللّون بدون أرداف.

- تبدين بخير يا كاسندرا. أفضل من قبل. يبدو أنّك أكثر سعادة في وطنك.

بدت الدّونيا إلڤيرا بعيدةً ومبجّلة في ثوبها الحريريّ الأسود. كانت

تجلس إلى يمين كاسي في القسم المقابل من المائدة. وقد أبدت ملاحظتها بلغةٍ انكليزيةٍ سليمةٍ تماماً، لا تخلو من تعليقها اللاّذع الاعتيادي.

أحنت كاسي رأسها بهدوء وأجابت: «شكراً».

كان بإمكانها أن تجيب بأنّها كانت ستشعر ببهجة غامرة، في إسبانيا لو أنّ زوجها أحبّها، ولو أنّ عائلته تقبّلتها. لكن ما فائدة التّنقيب في ماضٍ مات ودُفن؟ على الأقل بالنسبة لها؟ لن تسمح لهذه المحنة أن تضعف من رباطة الجأش التي اكتسبتها بجهدٍ. لن تسمح لأيّ كان أن يرعبها الآن.

جلست عمّتا رومان، تيا أغيدا و تيا كارميلا متقابلتين، وقد كانت أعينهما السوداء الصغيرة تنتقل بثباتٍ بين كاسي و دلفينا. أمّا هذه الأخيرة، فأخذت تحدّث رومان بلغةٍ أسبانية مفعمة بالحيوية، فيما هو مفتخرٌ بمكانه على رأس مائدةٍ من خشب الماهوغاني اللّماع. وراحت تنقل يدها باستمرار لتلامس يده، أو تتوانى فوق قماش كمّه، كأنّما للتأكيد على موضوع حديثها. وتحت أهدابٍ لمّاعة، كانت عيناها السّوداوان تشعان بغزلٍ ضمني.

خلال الوقت الّذي قضته كاسي في إسبانيا، تعلّمت من اللّغة ما يكفي. لكنّ نبرة تلك المرأة كانت خفيضةً جداً، وناعمة جدّاً، وحميمية حتّى استحال عليها أن تسترق السمع.

ما كان منها إلاّ أن مسّت كوب العصير بأصابعها. عندئذٍ، قالت الدّونيا إلڤيرا وكأنّها لاحظت حركتها المتوتّرة غير المقصودة:

- إنّه وقتٌ مزعجٌ بالنسبة لنا جميعاً.

ألم تكن تلك الحقيقة؟ غرزت كاسي الشوكة في قطعة اللّحم الطّرية، وفكرت في غياب توأمها الجليّ. قيل لها إنّه يخضع للإقامة الجبرية، وهو على الأرجح يتناول طعامه في المطبخ مع الخدّام. عندئذٍ، ألقت الشوكة من يدها، وقد عافت نفسها الطعام.

كانت تخنق في داخلها دافعاً شريراً إلى إخبار حماتها بأن ابنها حاول ابتزازها، سعياً لإعادة المياه إلى مجاريها، وما لبثت أن أعلنت:

ـ سأعود إلى انكلترا في الغد.

ورغم أن مدّة الابتزاز لن تزيد عن ثلاثة أشهر، الدّونيا إلفيرا والعمّتان لن ينظرن إلى ذلك بعين الرضا فمن المحتمل أنّهن بدأن يحسبن الأيّام على تحرّر رومان من تلك الزوجة غير الملائمة والميؤوس منها. كما أنّهن لا بد يضغطن عليه ليتزوّج فتاة من بلده، ذات نسبٍ راقٍ وثروةٍ طائلة!.

وسرعان ما ومضت فكرةٌ في رأسها. طبعاً! إنّها تفهم كلّ شيءٍ الآن. إنّ سقوط روي من علٍ قد منح رومان النّفوذ الّذي احتاجه.

الواقع أن طلبه لا يشمل فضولاً غريزياً جنسياً وحسب، كما ادّعى باحتقار، بل إن عائلته بلا شكّ تتذمّر باستمرار من الافتقار لوريثٍ. وبإمكانه أن يُسكت الجميع هذه المرّة إن بدا أنّه يحاول إنقاذ زواجه ثانيةً.

استعادت بوضوح ذكرى العصر الذي طلب فيه رومان يدها.. كان أعضاء العائلة الأكبر سّناً يأخذون قيلولة، فيما روي وغاي، أخو سيندي قد امتطيا حصانين، وراحا يجولان في السّهول.

أما سيندي وأمّها، فانشغلت بحزم الأمتعة في الطّابق الأعلى. كان شهر العطلة الطويلة قد انقضى وباتوا على وشك المغادرة في اليوم التّالي. تذكر أنّها صعدت السلّم الضّخم المنحوت، حين سمّرها صوت رومان الرّقيق في مكانها:

ـ كاسي؛ هل يمكنك أن تمنحيني بضع دقائق من وقتك؟.

اشتدّت يده على الدّرابزين المصقول حتّى ابيضّت سلامياته أما هي فاجتاحت جسدها موجةٌ من الحرارة القاسية. كانت متأكّدة من أنّها مغرمةٌ به، غراماً يائساً لا أمل منه، أحالها غبيّةً تهذر ما إن تكون في حضرته.

ما إن سمعت سيندي الخبر حتّى هتفت: «رائع!» وتصنعت الإغماء. ثم تابعت:

ـ إنّه لا يلاحظني حتّى، غير أنّه يتبعك بعينيه، أيّتها المستهترة المحظوظة!.

حاولت ألاّ تفكر في حماقة هذه الملاحظة الفاضحة. فلمَ يفكر رجلٌ بوسامة رومان، وبثرائه وثقته بنفسه، في النظر إلى امرأة عادية، بلا مؤهلاتٍ اجتماعية ولا جمالٍ مثير؟ وما لبثت أن تريثت حتّى تلاشت الحرارة الفاضحة عن وجهها لتستطيع الالتفات ببطءٍ.

كان يراقبها من أسفل السلّم. يراقب وينتظر. أمّا هي فأحسّت أن حنجرتها قد أصيبت بالتّشنج.

ـ أريد أن أكلّمك.

ـ نعم؟.

ترى، أعبرّت ملامحها عن الذكاء أم عن الغباء التّام؟ لا شك في أنّه الجواب الأخير، فإنّ أدنى حركةٍ من وجهه الوسيم الداكن، وكلّ كلمة من فمه أوحت بفروغ صبره.

ـ ليس هنا، بل في الفناء طلباً للعزلة. هيّا، انزلي.

وذهبت معه طبعاً. لو سألها أن ترافقه إلى القطب الشمالي لفعلت من دون تردّد. كان الفناء الغارق في أشعة الشمس مهجوراً إلاّ منهما، وقد عبق الجوّ بعبير إكليل الجبل والخزامى التي زرعت في الوسط. أمّا طلب الزّواج، فكان آخر شيء توقّعته.

ـ لم تكلّ ألسنة أمّي وعمّتيّ من الترداد بأنّ الوقت قد حان لأتزوّج وأنجب وريثاً. وقد دئبن على عرض النساء المناسبات أمامي على مدى السنوات الخمس الماضية. كما ضاعفن من حملتهنّ اليوم وقد بلغت سناً جليلةً هي الثالثة والثلاثين من عمري. قلت لهنّ أن يتوقّفن عن التّطفل في شؤوني، وأن يعدن هذه السلسلة من المخلوقات صاحبات الابتسامات المتكلّفة إلى مكانهنّ. قلت لهنّ إنّي سأتزوّج امرأة من اختياري، لا اختيارهنّ، لكنّ كلامي يضيع هباءً، وأصدقك القول يا كاسي أنّني ضقت

ذرعاً.

في هذه اللّحظة، كان قد تناول يدها، فبعث الاضطراب في جسدها كلّه، وأحالها إلى مجموعةٍ من الأحاسيس التي ضربت خلايا رأسها. ماذا تقول بعد لتعبّر عن أفكارها التي غاب عنها المنطق، وسرعة قبولها حين زاد من ضغطه على أناملها، وتمتم:

ـ برأيي، بوسعنا أن ننجح في زواجنا. فأنت صغيرةٌ بالنسبة إلى سنّك. لا تعتبري هذا انتقاداً، فأنت تفتقرين للرّياء والمكر اللّذين يضجرانني في بقيّة النساء. وهذا يعجبني جدّاً. إنّي في حاجةٍ فعلاً إلى وريث، ولهذا عليّ أن أتزوّج. أريد امرأةً أستطيع أن أعيش معها، امرأةً لا تضع في سلّم أولويّاتها كمال شكلها، أو الحفلات التي تتطلّب أيّاماً من الاستعداد، أو الإشاعات الفارغة.

تعمّد أن يلوي فمه بسخرية، قبل أن يتابع:

ـ لن تكون الصفقة الرابحة لمصلحة طرفٍ واحد. فمنذ وفاة والدك، وأنت أشبه بسفينةٍ من دون دفةٍ. أراهن على أنّه ربّاك تربية الرّهبان، وأنه ابتزّك ابتزازاً معنوياً ليبقيك في البيت كمدبرة منزلٍ بلا أجرة. من شأن الزّواج والأمومة أن يديرا الدفة في الاتجاه الّذي تريدينه يا كاسي. لا داعي لأن تقلقي من الدّيون التي تنتظرك في الموطن، فمن الطبيعي أن أسدّدها، بصفتي زوجك. أما بالنسبة لي...

لانت النظرة في عينيه كأنها تبتسم لها، ثم أردف:

ـ سأتحرّر من ثرثرة قريباتي التي لا تنتهي. ومع الوقت، سيأخذ أولادنا حيّز تفكيرهنّ، فأمضي حياتي بسلام، والأهمّ إنّي سأكون مع زوجةٍ اخترتها بنفسي. هل ستفكّرين في طلبي، أيّتها العزيزة كاسي؟.

شربت من كأسها باستخفافٍ وهي تفكّر في أنّها لم تفعل. لقد قبلت طلبه بكلّ بساطة، ثم فكّرت فيه لاحقاً، حين فات الأوان. عند ذاك، لم يكن بوسعها إلا أن تتقبّل أنّه لم يتزوّجها إلاّ لأنها مطيعة، غير متطلبة..

مخلوقةً بلا شأن، يمكن أن يلقي بها في زاويةٍ، وينسى أمرها، مخلوقةً تزوده بورثةٍ لأراضي فرناندیز الواسعة.

لكنّ الخطة لم تجرِ وفق ما كُتب لها، أليس كذلك؟.

علّقت ببرودةٍ على مسمعٍ من حماتها: «يبدو أن دلفينا ما زالت تزوركم».

وامتزج صوتها بالسخرية حين أردفت: «هذا لطفٌ منها، ألا تشاطرينني الرأي؟ لا سيّما حين يكون محيطها الطبيعي مكوّناً من المناسبات الاجتماعية الرفيعة، والمطاعم المتألّقة والمحالّ الغالية. على الأقلّ، هذا ما حملتني على اعتقاده».

لم تكن تحلم في الماضي بمجرّد التلفظ بكلام كهذا. فلطالما كانت تصاب بالذبول، بكلّ ما في الكلمة من معنى، كلّما توجّهت إليها حماتها والعمّتان بالحديث، والانتقاد، سواءٌ بشأن طريقة لباسها، أو عجزها عن الإنجاب، أو المحافظة على زوجها، أو خسارة وزنها..

ربّتت الدونيا إلفيرا بالمنديل على فمها، وأجابت: «لطالما كانت مولعةً بابني. كما قلت، إنّه وقتٌ مزعجٌ بالنسبة لنا جميعاً».

أهي تلمس تعاطفاً في عينيّ تلك المرأة؟ عضّت كاسي على شفتها السّفلى.

أعادت منديلها إلى مكانه، ثمّ اعتذرت من الحاضرين وغادرت الغرفة من دون أن تلقي نظرةً على رومان. حتّى هذا التعاطف الذي لقيته من طرفٍ غير متوقّع بتاتاً لا يستحقّ منها هذا التّفكير. ليس الآن، فقد انتهى كلّ شيء.

ـ أختي!.

ما إن أغلقت كاسي الباب المؤدّي إلى غرفة الطّعام الرسمية، حتّى انبعث روي من المدخل الحجري الفضي إلى قسم المطبخ. استغرق منها الوصول إليه ثانيتين فقط. أرادت أن تعنّفه، لكنّه بدا من البؤس ما دفعها

إلى احتضانه وحسب.

ـ ما تمكنت من أن أتناول عشائي، من غير أن أعرف إن كنت قد أقنعت رومان بمنحي فرصةً أخرى، أم لا.

أرادت أن تخبره أنها حاولت ومنيت بالفشل، وأنّ عليه أن يواجه المشكلة بمفرده الآن ويتحمّل عواقب خداعه، لكنّها شعرت بجسمه النّحيل القويّ يرتعش، فأحسّت بوخزٍ في قلبها، وترقرقت عيناها بالعبرات.

لقد خاضت المعارك جميعها من أجله في الماضي. ولو لم تفعل ذلك لربما اكتسب شخصية أقوى. من يدري؟ قد تكون حياته الفاسدة ذنبها هي.

لكن، أفي وسعها أن تخذله الآن، حين يحتاج إليها أكثر من ذي قبل؟ قالت له بتردّد:

ـ سيكون كلّ شيء على ما يرام. ستُمنح فرصة أخرى. لكن استفد منها، لأنها ستكون فرصتك الأخيرة.

***

٣ ـ كوني زوجتي!

يقع المطبخ في القسم القديم والأصلي من البيت. كانت الجدران الحجرية قد طليت باللّون الأبيض ولم يكن يعاكسها إلا الفرن الكبير الأسود اللّون الّذي أضفى على السّاعات الأولى من الصّباح نوعاً من الدّفء. انهمكت أسنسيون في عجن الكعك. وأسنسيون هذه مدبّرة المنزل وهي من يتولّى تقديم الطعام إلى عمّال الأراضي غير المتزوجين. أمّا في طرف الطاولة المقابل، فجلست خادمتان، تثرثران حول طبقٍ من الرّقائق المحمّصة وبعض القهوة.

فجأةً، توقّفت مدبّرة المنزل عن العجن، بينما غرقت الخادمتان في صمتٍ تام، ما إن أطلّت كاسي وسألتها: «هل رأيت السّنيور فرناندیز؟».

ما كانت الدّونيا إلفيرا والعمّتان يظهرن إلا في العاشرة، بعد تناول الفطور في غرفهنّ، هذا إن لم تكن العادات قد تغيّرت منذ اثني عشر شهراً وحتّى اليوم.

أمّا رومان، فكان دائماً يزور الأراضي بعد شروق الشّمس بقليلٍ، هذا إن كان متواجداً في البيت. لم تكن تريد أن تفوتها رؤيته، فتضطر إلى التسكّع حتّى حلول الغداء، وتقع أسيرةً لمزيدٍ من التّوتر والكآبة مع مرور كلّ ثانيةٍ، بل أرادت أن تنتهي من هذه المسألة.

ثبّتت أسنسيون يديها المكسوّتين بالطّحين على وركيها العريضين،

وقد لمعت عيناها السوداوان الصغيرتان بوميض من الفضول، ثمّ أجابت:

ـ لا، لم نره هذا الصباح يا سنيورة. إنّ السنيورة دلفينا تنتظره أيضاً.

هنا، أفلتت قهقهةٌ من إحدى الخادمتين، جعلتها تنال نظرةً صارمة من مدبّرة المنزل، ثم أضافت هذه الأخيرة:

ـ إن انضممت إليها في الفناء، ستتكفّل بتقديم القهوة لك هناك.

ـ شكراً يا أسنسيون.

انسحبت كاسي بذكاء، وهي تحسّ بنارٍ تحرق خديها. إنّ لا كوليناس ڤيرديس أشبه بقريةٍ صغيرة، فالكلّ فيها يعرف شؤون الجميع.. وقد خضعت سائر العائلة لشائعاتٍ وتكهناتٍ لا تنتهي.

لا بدّ من أنّ جميعهم يتساءلون: لمَ عادت العروس الإنكليزية الهاربة وغير اللائقة بالعائلة؟ ولمَ أخرج السيّد صهره من مكتبه المريح في جيريز، وجعله يكدح كعاملٍ في الحقول؟ وراحت هي تتساءل بدورها، والقلق يتملّكها، أيّ نوعٍ منَ الأجوبة استنبطوا؟

لم تكن ترغب في الانضمام إلى دلفينا حقاً، لكنّها كانت في حاجةٍ ماسةٍ إلى تلك القهوة. فقد أمضت ليلتها تتقلّب على فراشها، يعذّبها المصير الذي جرّت نفسها إليه. لا يمكنها أن تخلف وعدها إلى روي. وما لبثت أن فكّرت في حزم بأنها ستقبل العودة إليه شرط أن يدّعي أنهما سيبدآن من الصّفر، أملاً في صرف قريباته عنه.

كانت دلفينا جالسة في ظلّ شجرةِ تينٍ باسقة نبتت أمام أعلى جدارٍ حجريّ في الفناء. كانت تلبس بنطالاً مناسباً للفروسية وقميصاً من الحرير الثقيل، وقد رفعت كمّيه الطويلين حتى المرفقين تقريباً. فكشفت عن ساعدين لوّحتهما الشمس، وسوارين متطابقين من الذهب.

بدت أشبه بالارستقراطية تماماً، وكأنها تنتمي فعلاً إلى هذا المحيط.

لم تستطع كاسندرا أن تفهم لمَ سيتكبّد رومان كل هذا العناء، مدّعياً أنه يحاول إنقاذ زواجه من امرأةٍ عادية؟ بينما أمام ناظريه هذه المرأة الراقية

الجميلة، ابنة إحدى أثرى العائلات، امرأة تصلح لتكون زوجةً مثالية. أم تراه كان صادقاً حين أكّد أنّ النساء مثل دلفينا، يصبنه بالملل؟.

قالت لها دلفينا بنزقٍ: «إن كنت تبحثين عن رومان، فحظّك سيّء. كنّا متواعدين لركوب الخيل. لكن يبدو أنّه رحل بدوني».

أفصح وجهها الجميل المثالي عن وقاحةٍ، بينما اجتاح التجهم فمها القرمزي وتابعت:

ـ لطالما فضّل التوجّه نحو التّلال على قضاء الوقت برفقتك. أظنّ أن هذا ما حدث الآن.

ـ حقاً؟.

تهالكت كاسي على المقعد في الجزء المقابل من الطّاولة، تحت أشعة الشمس الحارّة المتوهجة، وهي تلاحظ أنّ المرأة الأخرى لم تكد تلمس قهوتها أو كوب عصيرها. قد يكون رومان مستمتعاً حقاً بـ دلفينا المغناج، وملازمتها له ربّما تعزّز من غروره الكبير أصلاً. لكنّه بالتأكيد لا يريد أن يتزوّجها، ولا يعودُ ذلك إلى سطحيتها المملّة وحسب.

ولدت دلفينا في أحضان مجتمعٍ يُعنى بالأناقة والتّرف، فاعتادت على الحياة الفخمة منذ نعومة أظفارها. وهي لن تسمح لنفسها طبعاً بالانعزال في هذا المكان، وتنجب له الأطفال فيما أمّه وعمّتاه..

تابعت والشوق إلى معرفة الجواب يتآكلها:

ـ لا أفترض أنّها مدّةً طويلة إن كانت البذلة التي ارتديتهاعلى العشاء أمس هي كلّ ما أحضرته معك.

ثم أردفت باستخفاف: «ولا يجدر بك حقاً الجلوس تحت أشعة الشمس، بسبب لونك المائل إلى الزنجبيل، وإلاّ اجتاح وجهك نمشٌ شنيع كشقيقك.. وبالمناسبة، ماذا يعمل هنا؟ ظننت أنّ رومان أمّن له حياةً آمنة في مكتب جيريز».

جاء الجواب بصوت رومان المخمليّ الغامض:

ـ إنّه يتعلّم إدارة الأراضي على أرض الواقع.

كان يقف في ظلّ عمودٍ من عواميد الرواق المقنطر المحيط بالفناء من جهاتٍ ثلاث.

ـ ومن يدري؟ إن لم يكن مرتبطاً بالتزاماتٍ أخرى، حين يتقاعد ميغيل خلال ستّة أعوام، فقد يصبح روي المدير.

فهمت كاسي ما يرمي إليه. قد يبني روي مستقبله هنا على الأرض لا يفارقها. أمّا هو، فيسرح مختالاً حرّاً كما الطيور. لا شكّ في أنّها ستكون زوجةً متطلبة، في حين أنّه يرغب في امرأةٍ مطيعة، فلا توجّه له سؤالاً ولا تلحّ عليه بطلبٍ.

إنّ رومان فرناندیز من الأنانية ما يمنعه من الارتباط تماماً بامرأةٍ واحدة. فنمط حياة العازبين وما يجرّه ذلك من ملّذاتٍ غالٍ جدّاً على قلبه. لكنّ كاسي تعلم على الأقل أنه لن يغوي المرأة الأخرى، فهي تأتي من عائلةٍ مهمة ولن يقوى على تعريضها للفضيحة. فكبرياؤه الإسبانية لن تسمح له بذلك. غير أن كاسي عجزت عن أن تفهم لمَ تنظر إلى ذلك كعزاءٍ، فتصرّفاته قلّما أصبحت تهمّها منذ وقتٍ طويل.

تكلّمت دلفينا وبصوت خافت وبسرعة:

ـ أعجز عن العثور على سببٍ لعودتك بعدكلّ هذا الوقت. إن كنت تظنّين أنّ رومان سيستردّك، فأنت تضيّعين وقتك سدًى لأنّه لن يفعل ذلك، كما تعرفين. كم من الوقت ستطول إقامتك؟

فما كان منها إلا أن ارتعشت، رغم حرارة الشمس الدّافئة. على الأقل، لم يسرّ رومان بواقع الحال إلى دلفينا. فشكرته في قلبها على لباقته.

ما إن أطلّ رومان من الظلّال، حتّى أصبحت المرأة الإسبانية امرأة ودوداً... فاستحالت الوقاحة ترحيباً بسّاماً، ثمّ وقفت وهي تملّس بيديها على وركيها الجذّابين، وهتفت:

ـ كان بيننا موعدٌ. انتظرتك طويلاً، لكنّك على الأقلّ هنا الآن. لذا قرّرت أن أسامحك هذه المرة فقط.

لم يكن يرتدي ملابس ركوب الخيل، بل سروالاً ضيّقاً من القطن، يعلوه قميصٌ أسود عالي الجودة. باختصار، بدا رائعاً، ناضحاً برجولة رجولية قاسية. فهمت كاسي لماذا تعجز دلفينا عن الابتعاد عنه، وباستطاعتها أن تتصوّر كيف حلّقت آمال المرأة الإسبانية عالياً حين علمت أن هذه الزّوجة الفاشلة قد هجرته. شعرت كاسي بالأسف عليها!.

أعلن رومان على نحوٍ فظٍّ وكأنّ صبره قد بدأ ينفد:

ـ ستضطرين إلى ركوب الخيل وحدك هذا الصّباح. تنتظرني أعمالٌ عاجلة مع زوجتي، لكن...

سكت قبل أن يضيف بلطفٍ:

ـ لقد أسرجت ديميتريو من أجلك. الفرس جاهزة وتنتظرك في باحة الاسطبل.

كان لابتسامته الهادئة أثرٌ ملطّف أبعد الكلمات الوقحة التي كانت دلفينا على وشك أن تقولها، وتكفّلت أسنسيون بالباقي وهي مقبلة بصينيّة كبيرة.

بسطت مدبّرة النزل على الطاولة فطوراً لشخصين وهي تتمتم:

ـ سنيور، سنيورة.

ثم رفعت الشراب الّذي لم تلمسه دلفينا. عندئذٍ، مرّرت دلفينا نظراتها باستخفافٍ على كاسي، ومنحت رومان ابتسامةً مؤاسيةً، ثمّ قالت بتشدقٍ:

ـ سأتركك لعملك المملّ إذاً. يمكنك أن تعوّض عليّ خيبة أملي حين تفرغ منه.

سدّدت نظرةً حادّة أخرى نحو كاسي، ثم مضت في سبيلها مخلّفةً العطر المثير الّذي يميّزها عابقاً في الأجواء الصيفيّة الحارّة.

ما إن غادرت أسنسيون، حتّى اتّخذ رومان المقعد الّذي شغرته دلفينا. عندئذٍ، نظرت كاسي إلى الرّقائق الهشّة والعسل والفواكه الطّازجة والقهوة، فلم تشعر برغبةٍ في الأكل. فقد أحيا وجوده جرحاً كاد ينفجر، وزاد الطين بلّةً حين مدّ يده إليها، وراح يمرّر أصابعه على طرف وجهها برفقٍ.

- بخلاف توأمك الّذي لا يشبهك، لا يكسو النّمش بشرتك.

كان صوته بطيئاً وجذّاباً ورقيقاً، فيما عيناه الدّخانيتان تتبعان حركة أنامله وقد ارتاحت لوهلةٍ عند زاوية فمها.

- كما إني لا أصف شعرك بالزنجبيلي.. اللّون، بل له لون الكستناء اللاّمع يا كاسي.

بعد أيّام شهر عسلهما الأولى المشؤومة القليلة، لم يقدم على لمسها قط، إلاّ مصادفة ربّما. وهو بالتّأكيد لم يلامس بشرتها بتعمّدٍ وتأنٍ وإغواء. فلمَ يلامسها الآن؟ لمَ يحاول أن يناقض إهانات دلفينا السّابقة؟ اتّسعت عيناها حيرةً وارتباكاً.

حاولت أن تتحرّك، أن تبعد رأسها عن مداعبة أنامله الرقيقة، عن الدّفء الّذي أشعل ناراً في بشرتها، لكنّها كانت مفتونةً، واقعةً في سحر هاتين العينين الودودتين، وكأنّها عادت إلى سنّ الحادية والعشرين ثانيةً، وكأنها عادت حساسةً وساذجةً وبريئةً وأسيرةً لعذاب الأحداث الأخيرة.

كان الصّوت الّذي أفلت من حنجرتها الحافلة بالألم أقرب إلى أنينٍ خفيضٍ أجش منه إلى إعلانٍ معقول، وكأنّه أدرك أنّ بوسعه أن يجعلها ضعيفةً خاضعة.. رفع حاجبه الأسود بمراوغةٍ ما إن أخفض يده. وقد علت فمه المثير ابتسامةٌ مزدرية، وأمسك فنجان القهوة.

لكنّها لم تكن فعلاً على هذه الصّورة الّتي تخيّلها. فسحره هذا صار لا يؤثّر فيها. كلّ ما في الأمر أنّها تخشى أن تورّط نفسها، رغم أنها تعلم أنّ ما من خيارٍ آخر، إن كانت تريد إنقاذ توأمها.

وقد حان الوقت لتخبره أنّها ستقبل عرضه الرّهيب، بغضّ النّظر عن الشّرط الّذي قرّرت أن تضعه.

من الصّعب فعلاً أن تصدّق أنّ هذا يحدث لها فعلاً. فهجره تطلّب منها شجاعةً كبيرة. أما طرده من فكرها، فلزم قدراً كبيراً من العزم والتّصميم.

أحسّت بارتجاجٍ في حلقها، غير أنّها صرفت النّظر عنه، وحدّقت في القهوة الكثيفة البخارَ التي وضعها أمامها، ثم أعلنت بأقصى ما أمكنها من هدوء:

- إن كنت مصرّاً على استغلالي لإلهاء عائلتك عن مضايقتك بضرورة إنجاب وريثٍ، سأبقى معك طيلة الأشهر الثلاثة التي حدّدتها. إنّما...

قارب رومان الضّحك وهو يجيب:

- إلهاء؟ هذا مثير للاهتمام....

فجأةً، سألت كاسي بنبرةٍ حذرة: «وأيّ سببٍ آخر قد تملكه؟».

- ما من سببٍ.

لكنّ ومضة شريرةً في عينيه المظلمتين كذّبت إنكاره الفظّ، مع أن هذا الإنكار بعث فيها بعض الإطمئنان.

- إنك تفهمين بسرعة، أحسنتِ! أنت زوجتي، وموجودةٌ هنا، كما إنّك تخدمين مصالحي. إنّما لا تنسي أن الصفقة تتضمّن مشاركتك فراش الزوجية، كأي زوجةٍ فاضلة...

ابتلعت كاسي ريقها بقوّةٍ، ثمّ زادت من حدّة صوتها وهي تهتف: «لقد أثبتّ وجهة نظرك، فلا داعي لمزيدٍ من التّفصيل. سأنفذ ما يترتّب عليّ من الصفقة، لكن ليس هنا».

- أهذا إنذار يا زوجتي العزيزة؟.

- إمّا أن تقبله وإما أن ترفضه.

كان هذا صدى كلماته السابقة. حاولت أن تتجاهل أنّه رجلٌ لا يحبّ

أن يخضع للإكراه، وتظاهرت أنّها لن تقبل بأيّ تراجعٍ رغم معرفتها بأنّها ستضطر لذلك لو لم يوافق.

تساءل بسخرية: «ترى، ما الّذي لا يعجبك إلى هذا الحدّ في لاس كولیناس ڤيرديس؟».

سدّدت إليه كاسي نظرةً مريبة من تحت أهدابها. فما كان منه إلا أن أمسك بقطعة توست، فدهنها بالزبدة، ثم نشر فوقها العسل، وبدا وكأن الوضع الحالي لا يزعجه البتّة.

ـ أذكر أنّك، في وقتٍ سابق، سألتني الانتقال إلى منزلٍ آخر.

لم تسأله فحسب، بل توسّلت إليه، أو قل إنّها ناشدته راكعةً على رجليها! لم تكن قادرة على تحمّل البقاء وحدها، خاضعةً لمراقبة أمّه وعمّتيه وانتقادهنّ، أو تحمّل زيارات دلفينا التي لطالما تصادفت، بمعجزةٍ من المعجزات، مع وجود رومان.

لكنّه لم يكن يصغي إليها.. ولمَ يفعل وتعاستها وانعزالها وسجنها أمور غير مهمّة بالنّسبة إليه؟ فبعد ليلة زفافهما المشؤومة، كان من الملائم له أن يبعدها عن نظره وعن فكره.

صحّحت له بحدّة: «ليس المكان ما يزعجني، بل القاطنون فيه».

وليكن هذا مهيناً له! لن تكون تلك الجبانة في حضوره بعد الآن، أو تلك التي تحاول أن تسعده بلا جدوى، أوالتي تأمل هباءً أن يكنّ لها شعوراً غير لامبالاته.

ـ لو كنّ هنا، لانهمكن في مراقبتي بعيونٍ أشبه بعيون النّسر، ليتأكّدن من أنني حامل، أو أنّني لم أغادر مكاني، أو أنني قمت بواجباتي. ولا أريد لهذا أن يتكرّر.

أجابها بفتور: «كان يجدر بك أن تخبريهنّ أنّهن يضيّعن وقتهنّ سدىً. وأن احتمال إنجابك لطفل غير موجودٍ، لأنّك بكل بساطة ما كنت تحتملين اقترابي منك».

كبتت كاسي ردّاً غريزياً عنيفاً بأن الذنب ليس ذنبها وحدها. فعلى أيّ حال، هي من تطرّق إلى هذا الموضوع في الأمس. غير أنّ الحدّة في عينيه والتّوتر في فكّه أكّدا لها أن انتقاد عائلته زرع فيه غضباً شديداً.

وما لبثت أن تعمّدت رشف قهوتها، ثم أخذت نفساً عميقاً حتّى بدت نبرتها معقولةً تماماً:

ـ لا أريد أن أتشاجر معك يا رومان، لكنّ زواجنا كان غلطةً، ومن الأفضل أن ننسى الماضي، لأنّه لم يعد مهمّاً. ما يهمّ الآن هو كيف نتعامل مع الأشهر الثلاثة المقبلة، وأين سنقضيها.

ارتشفت بضع رشفات، وهي تحاول أن تواجه الاعتراض المروّع الّذي استبدّ بجسدها لمجرّد التّفكير في الأشهر الثّلاثة المقبلة.

ويبدو أنّ كلماتها المبتذلة قد زادت من حدّة الوضع، سيّما أن حاجبيه السوداوين قد انعقدا، فيما ترفّعه الأسباني المتكبّر كان من الحدّة بحيث يقطع قطعاً.

ـ سنقضيها معاً. تلك كانت الصفقة.

لمّا قام عن مقعده، ضاعف الظلّ من غموضه. كان له طبعٌ صعب وشخصيّاتٌ متعدّدة، وما كانت مرّةً قادرةً على فهمه.

ـ سأعلن نبأ صلحنا على العائلة. استعدّي للرّحيل خلال ساعةٍ.

نظر إليها بتمعن وهو يشدّ على فمه، وكأنّه يتحدّاها أن تضيف كلمةً أخرى. وما لبث أن استدار ورحل، مخلفاً إيّاها حائرةً من تغيّر مزاجه.

فهو أوّلاً يبدأ بسحرها، حتّى تنقاد لرغباته على الأرجح، وما إن توافق على مطلبه حتى يُظهر مزاجاً أسود. لا، لم تتمكّن من فهمه يوماً. لكن ذلك لا يهمّ فعلاً اليوم، أليس كذلك؟.

***

٤ ـ شهر العسل المرّ

دارت بينهما بضع كلماتٍ تافهة خجولة. أمّا ما عدا ذلك، فبالكاد نبسا ببنت شفة. ساد صمتٌ لاسع داخل السيّارة المكيّفة الهواء، بدأ يتغلغل إلى كاسي، من غير أن يصيب رومان على ما بدا. وهذا أزعجها.

كانت الأحداث كلّها قد تواترت بشكلٍ سريع، حتّى مُني رأسها بدوارٍ أليم ما زال يتلاعب بها حتى تلك اللّحظة.

كانا قد غادرا قطاع لاس كولیناس ڤيرديس في الأمس، مخلّفَيْن الدّونيا إلثيرا والعمّتين في حيرةٍ من أمرهنّ أمّا دلفينا فكانت أبعد ما يكون عن الحيرة. كما خلّفا روي، مسحوق الفؤاد، أسيراً للعقاب المناسب.

كان روي قد سارع يطمئنها قبل الرّحيل، ويسرّ إليها في الدّقيقة الأخيرة أنّه سيعمل جاهداً في الأرض حتّى يعوّض عمّا اقترفته يداه، وأضاف بصوتٍ أجش:

ـ لا تقلقي بشأني. أصبحت أفكاري مستقيمة. ركّزي فقط على إنجاح زواجك هذه المرّة يا أختي. إن رومان ما زال مجنوناً بك. لم يعد أحدٌ يحتمل التّواجد بقربه منذ رحيلك.

كلّ هذا أثبت لها أنّ العمل تحت الشّمس الإنسانية الحارقة أودى بعقل أخيها التّوأم.

بلغا سيڤيل في عصرٍ فيه من الحرّ ما يصيب بالإغماء، فنزلا في فندقٍ،

حيث مُنحت، والحمد لله، غرفةٌ خاصة، فيها سريرٌ بأربعة عواميد، وإطلالةٌ متميّزة على الجيرالدا. لكن قبل أن يتسنّى لها الوقت لتفرغ أمتعتها الضّئيلة، كان رومان قد قرع الباب، مصرّاً على اصطحابها إلى أحد محال الثياب الأنيقة.

اقتربت منهما امرأةٌ سوداء الشّعر تتميّز بكياسةٍ مجرّدة، أو فلنقل بصرامة. فما كان من كاسي إلاّ أن وقفت وجالت بنظرها. كان تصميم المكان هادئاً وكان الضّوء منتشراً برقة.. ولم يكن يزيّن الأرجاء إلاّ تمثالٌ لعرض الملابس يظهر بذلةً حريريّة بلون القشدة لأحد المصمّمين المشهورين. وهو وحده يصرخ بثمنٍ باهظ.

تمتمت كاسي إلى رومان: «أحتاج إلى ثوبٍ عمليّ».

ستبتاع تنورةً أو اثنتين من القطن، وبنطالاً وقمصاناً بالإضافة إلى صندلٍ مريح، أي ملابس تشتريها بسعرٍ بخس من السّوق، لا تلك التي يخيطها مصمّمون عالميّون بأسعارٍ جنونية. إنّها تكره أن تدين له بهذا الفضل حتّى.

رمق وجهها بنظرةٍ متكاسلة، ثمّ رفع حاجبه الأسود بخفّة، فاجتاحها بكلّ بساطة. لكن حين رأت كومة الثياب التي خضعت لمعاينته واستحسانه، هتفت كاسي: «كفى!».

وها هي الآن، مع كميّة غالية فائقة الجمال من الثياب، تكفيها حتّى نهاية عمرها، مرتّبة في صندوق سيّارة المرسيدس، تبتعد عن سيڤيل في دفء هذا الصّباح الغائم. كانت الأفكار في رأسها تنبض بكآبة، وجسدها يضطرب مع تراكم الهواجس بسرعةٍ وحشية. أمّا عقلها، فيضجّ بأسئلةٍ لا ردود عنها.

لكنّ سؤالاً واحداً لقي جوابه، فيما هما متّجهان خارج جيريز، نحو السّاحل، عبر الكروم المتموجة بنعومة تحت السّماء الزرقاء الواسعة.

ـ أتأخذني إلى سان لوكار؟.

لم تكد تصدّق عينيها. أبلَغَ به الافتقار إلى الحسّاسية حدّاً جعله ينسى أنّ هذا المنزل الحجري الذي يقارب القصر في جماله، ويقع في الحيّ العتيق من الميناء التاريخيّ، هو آخر ما تودّ أن تراه؟.

رماها بنظرةٍ جانبيةٍ باردة، وأجاب:

ـ لم ترغبي في البقاء في العزبة. وبما أن المنزل في جيريز يخضع لتغييرٍ في ديكوره، تذكّرت كم كنت سعيدة في هذه المنطقة، في هذا البيت. إذاً، نعم ستتّخذ من سان لوكار بيتاً لنا.

كان يتكلّم وكأنّ اتّفاقهما سيدوم للأبد. فسارعت تذكّره بعناد: «ثلاثة أشهر».

وفجأةً انبعثت الذّكريات التي ظنّت أنّها دفنتها يوماً، وعادت تنهش عقلها وتعذّبها.

كان قد اصطحبها إلى منزل سان لوكار بمناسبة شهر عسلهما. فعشقت المكان من النّظرة الأولى، من غير أن تخفي عنه شعورها هذا. أحبّت الغرف الطويلة، والتّحف التي مرّ عليها الزّمن، والفناء المعطّر حيث يصدح خرير المياه في النّافورة الحجرية القديمة، وهديل الحمام فوق الجدران المكسوة بأزهار اللّيمون الشاحبة.

لكنّ الأمور كلّها ما لبثت أن ساءت، من غير أن توفّر تفصيلاً صغيراً. فبدل أن ينعما بالمكان لأسابيع عدّة، رحلا بعد ثلاثة أيّام. خلال رحلة العودة، كانت هي ترسل عباراتٍ صامتة من الذّل والقصور الميؤوس منه، بينما وجهه الوسيم الأثير يفصح عن كبرياءٍ إسبانية.. منذ ذلك الوقت بالذّات، تجاهل وجودها فعلياً.

هل أحضرها إلى هنا ليذلّها؟ أهذه مرحلةٌ أخرى من مراحل عقابها؟ ربّما. فقبل سنةٍ، تملّكه الشّك والغضب حين تلقّى رسالةً تنبئه فيها أنّها ستهجره. لا أحد يتجرّأ على هجره من دون عقاب، ولا حتّى زوجةٍ حقيرةٍ

غير مرغوب فيها.

وها قد حان عقابها.

كان البيت الحجري الواسع المطل على مدخل الغواد الكويثير خالياً، وكانت الغرف الأنيقة العالية السقف صامتة. أعلن رومان من دون أيّ تغيّر ملحوظ في نبرة صوته:

ـ الوكيل وزوجته غائبان. ارتأيت أن أمنحهما عطلة إضافية نظراً للظّروف. لذا، علينا أن نعيل أنفسنا لأسبوع أو اثنين. وبما أنك حديثة العهد بالاستقلالية، أنا متأكدٌ من أنّك لن تجدي مشكلةً في ذلك.

ردّت بلطفٍ: «أبداً، ستساعدني الأعمال المنزلية على تمضية الوقت».

لن تسمح له، مهما كلّفها ذلك، أن يحسّ بالقلق الّذي يعتريها بسبب انعزالهما، أو بالرّعب الّذي ينتابها من فكرة مشاركته فراشه، كما اشترط، رغم أنّها في الواقع تكاد تشعر وكأنّها تبيع جسدها.

عجزت عينا الكهرمان عن التّعبير ما إن امتزجت بعينيه. كان قد تزوّج حالمةً ساذجة حساسة. لكنّها اليوم امرأةٌ واقعية، راشدة أحالتها التّجارب القاسية قويّةً صلبة العود. هذا ما عليه أن يتعلّمه.

تابعت بعنادٍ: «سأتركك لترتّب الأمتعة... هل ما زال الهاتف في البهو الصّغير؟ أودّ أن أهاتف سيندي».

راقبها بعينين ضيّقتين وقال بصوتٍ تخلّله قدرٌ من القسوة:

ـ سبق أن تولّيت الأمر. كانت سعيدةً لأننا سنعيش مجدّداً كزوجين. سبق أن أخبرتها كلّ ما ينبغي أن يقال.

ردّت بهدوء، وهي تتجاهل الرّعب الّذي أثّر في خفقات قلبها:

ـ أظنّ... أنني أفضل من يقرّر ذلك.

وما لبثت أن أولته ظهرها وبدأت تبتعد. لن يملي عليها أوامره ثانيةً متوقعاً منها الخضوع لعقليته القديمة الطراز! لقد مضت في حياتها. لقد

تغيّرت.

غير أنّها كانت ترتجف بالفعل، وهي تطلب رقم صديقتها. فقد سرت في بشرتها قشعريرةٌ خفيفة، تغلغلت حتى شرايينها. وأحسّت وكأنّها تطأ أرضاً مخيفةً مجهولة، وهي معصوبة العينين.

ـ متجر السيدة والفتاة، هل من خدمة؟.

رسم صوت سيندي المشرق ابتسامةً تواقّة على شفتي كاسي. تناهت إليها ثرثرة الزّبائن، فتمنّت بشدّةٍ لو أنّها هناك، غارقةً في خضم مشاغلها، ماضيةً في حياتها الخاصّة.

ـ هذه أنا، آسفة لما حدث. أخبرني رومان أنّه تكلّم معك. اسمعي يا سيندي، بخصوص العمل والشّقة...

ترى، أسيبقى العمل والشقة شاغرين حتى نهاية الأشهر الثلاثة؟.

ـ سأعود... أعدك...

هتفت سيندي بحماقة، وصوتها يعلو على الضّجيج من حولها:

ـ كفّي عن هذا الهرج والمرج. وحباً بالله، لا تعتذري. هذا أفضل خبرٍ سمعته منذ مدّةٍ طويلة. الشخص الوحيد الّذي لم يهلّل فرحاً بعودتك إلى رومان هو غاي. يبدو وكأنّه ربح اليانصيب، ثمّ أضاع البطاقة! لقد أمل أخي المسكين أن يتقرّب منك بعدأن تتطلّقي من رومان. أما الآن فهو أسير العبوس. لكن، لا تقلقي بشأن هذا أو بشأن أيّ شيء آخر، أتسمعينني؟ استمتعي بشهر عسلٍ ثانٍ، وعودي لتجمعي أغراضك من الشّقة متى شئت، ولا تقلقي بشأن إغراقي في ما تعرفين، فقد وظفت فتاةً تركت المدرسة أمس. إنّها في السابعة عشرة وهي أنيقة. لقد شغلت وظيفتك وكأنها خلقت لها.

استسلمت كاسي بكآبة. من الواضح أن زوجها المنفّر أوحى أن اتفاقهما المؤقّت سيدوم أبداً، حفاظاً على ماء الوجه. لقد فقدت الوظيفة التي تحبّها، وبيتها. مهما صرخت بأنّها لن تبقى في إسبانيا دقيقةً إضافية

عن الأشهر الثلاثة، فإنّ صديقتها لن تصدّقها.

حين استطاعت أن تتكلّم فعلاً، قالت غير مصدّقة:

ـ لم أكن أملك أدنى فكرة عن شعور غاي. لا شكّ في أنّك مخطئة. إنّنا صديقان منذ البداية.

وما لبثت أن أصرّت: «صديقان وحسب».

ـ لا، بدأ أخي الكبير يأمل بعلاقةٍ معك منذ العطلة التي أمضيناها في إسبانيا. لكنّ رومان سبقه إلى ذلك، وإذا بك تعدينه بالزّواج. يا لأخي المسكين! ما إن عاد إلى الوطن حتى انغمس في حماقات الشّباب إلى حدٍّ بعيد. لكن لمّا عدتِ بخبر انتهاء زواجك، توقّف عن المواعدة وراح ينتظر مراسم طلاقك. لم يظنّ أنّه من المناسب الإفصاح عن مشاعره قبل أن تصبحي حرّة.

ضغطت كاسي براحتيها على جبينها.

ـ يا إلهي، صدّقيني، لم أعرف ذلك!

تلك مشكلةٌ إضافية عليها أن تقلق بشأنها. إن غاي أشبه بأخٍ لها، وهي تكره أن تسبّب له التعاسة ولو عن غير قصدٍ منها.

حين أغلقت السماعة، حاولت أن تنتزع المحادثة المشوهة من فكرها، فأمامها مسائل أعظم لتعالجها. كان رومان قد اختفى، واختفت معه الأمتعة.

فجأةً، اتّخذت تلك الملابس الجديدة والجميلة كلّها جاذبيةً خالصة. وإنّها لسخافةٌ أن ترفض ارتداءها لأن رومان ابتاعها.

صعدت درجات السّلم، وقد حُفر على الدّرابزين الذي يدعمها عناقيد من العنب وطيورٌ غريبة. حاولت أن تتجاهل إحساس الارتباك في معدتها، وهي قلّما ترغب في الجمع بين كلمتي «غرفة النوم» و «رومان» حالياً.

اختلست النّظر إلى الغرف الواحدة تلو الأخرى وآمالها تتضاءل. ما من أثرٍ لأمتعتها بعد. وفيما هي تقترب من غرفة النوم الرئيسية، حيث

كارثة شهر عسلهما، خفق قلبها بعنفٍ، فما كان منها إلاّ أن أخذت نفساً عميقاً، عساها تعيد إليها الثبات، وفتحت الباب المنقوش باتقان.

لم يتغيرّ شيء في الغرفة الجميلة. كانت النّوافذ الطويلة تطلّ على البساتين والتلال المتموجة خلف السهل الموازي للشاطىء. أمّا الجدران فقد كسيت بورقٍ فخم مطرّز بظلالٍ هادئةٍ زهرية وفضية اللون. إلى جانب طاولةٍ قديمة الطراز، رأت الكراسي الجميلة التي جعلت المكان مناسباً لفطورٍ حميمٍ بين اثنين غير أنّها رفضت أن تنظر إلى فخامة السّرير بعواميده الأربعة.

كانت الحقائب بما فيها حقيبتها المعدّة للاستعمال في الرّحلات القصيرة في وسط الغرفة، وكان رومان يعلّق ملابسه في خزانة الثياب. . لم يكن في نيّته أن يحرّرها من اتّفاقهما، أو أن يمنحها ليلةً أو ليلتين تأخذ فيهما حريّتها!.

في الواقع، لم تكن الغرفة قد تغيّرت، ولا هو بالطّبع، لكنّ ذلك لا ينطبق عليها. فهي لم تعد فأرةً عاجزة، يتعذّر عليها التّعبير عن أنكارها. قالت، وهو ما زال يوليها ظهره:

ـ أرى أنّك لا تنوي أن توفّر لي غرفةٍ لي وحدي. ستخوض المعركة حتى النهاية، أليس كذلك؟ فأنت تعتبر هذه طريقة حاذقة.

تصلّب منكباه العريضان تحت القطن الأبيض المتموّج. ثمّ التفت ببطءٍ، فالتقت عيناه اللّماعتان السّوداوان بعينيها، ولم تفارقاهما.

ـ الحذاقة لم تبلغني إلى أيّ هدفٍ خلال شهر عسلنا. أو لعلّك نسيتِ كيف كنت تصرّين أسنانك وتتحمّلين اقترابي منك؟ أتعلمين كيف جعلني ذلك أشعر؟.

لمحت لون غضبٍ باهت يصبغ وجنتيه، وتابع:

ـ كنت أفضل حالاً من الحيوان بقليلٍ، أتذوّق طعم الرغبة بنفسي، من غير أن أمنحك أي شيء!.

وما لبثت أن لانت نبرته قليلاً وهو يضيف:

ـ قلت لنفسي إنني يجب أن ألتمس لك عذراً، نظراً للتربية المحافظة التي نشأت في ظلّها، ولافتقارك التّام إلى الخبرة، فعلى كلّ حال، كان هذا جزءاً من الانجذاب الذي شعرت به حيالك. لكنّك لم تسمحي لي قط بالدّنو منك بعد تلك المرّة الأولى. لذا، تركتك وحدك، كما شئت. يمكن للرّجل أن يصبر على الجروح التي تصيب كبرياءه، ولكن للجرح حدود.

أسدلت جفنيها شاعرة بذنب. . . فهي لم تنظر إلى الأمر من هذه الزاوية من قبل. عرفت بغريزةٍ داخلية أنّ مخاوفها السّرية قد استحالت حقيقةً. لقد خيّبت أمله بشدّة ليلة زفافهما، فجمّد الخوف من خذله أوصالها حتّى عجزت عن الاسترخاء أو عن التّجاوب.

وهذا الخوف نفسه دفعها غريزياً إلى رفضه كلّما حاول لمسها مجدّداً. لو أنّه أفصح لها عن كلمة حبٍّ واحدة، لاتّخذت الأمور منحىً مختلفاً تماماً. . . لكن، رغم كلّ ذنوب رومان، لم يكن كاذباً قط. . . .

أخيراً، قال بسطحية: «أقترح أن نغيّر الموضوع. لم لا تفرغين الأمتعة فيما أجدّ ما أحضّره للغداء؟».

ومضى. . . مغلقاً الباب وراءه، فأحسّت، لسببٍ عجزت عن معرفته، بالحرمان التّام.

بعد ساعةٍ، نزلت السّلالم. كانت قد استحمّت في حمّام من الرّخام الأخضر المزخرف، واستخدمت زيتاً عطراً دهنته على جسدها، فصنع فيها هذا كلّه الأعاجيب.

كان عليها أن تختار ثوباً من المجموعة الباهظة الثمن التي أصرّ رومان على شرائها. لكنّ الاختيار بدا صعباً، فكلّ الأثواب رائعة الجمال.

في النهاية، انتقت بنطالاً حريرياً ناعماً فضفاضاً بلونٍ أسمر مصفر رائع، وبلوزة ملائمة تصل حدّ الرقبة، عارية الذراعين والظهر تقريباً.

تركت شعرها ينسدل على ظهرها، وقد بدأ يجف متّخذاً شكل خصلاتٍ متموجة. ثم خضّبت شفاهها، وصبغت أهدابها من غير تكلّفٍ، واستعدّت للنّزول. لم تكن تريد أن تفكّر في اللّيلة القادمة، فتصاب بالتّوتر والخوف.

توقّفت لبرهةٍ على أرضية البهو الباردة، ثمّ تبعت صوت السكّاكين. كان رومان قد وضع على مائدة المطبخ صينية كبيرة حَوَت أطباقاً وملاعق وأكوابٍ وخضاراً.

أيعقل أنّ رومان فرناندیز المتكبّر، سيّد أراضي لاس كولیناس ڤيرديس، يعمل في مطبخٍ؟ هذا ما لم تسمع به من قبل!.

قالت له بتشدّقٍ والتسلية في صوتها: «يبدو أنّك كنت مشغولاً».

إن رؤيته في دورٍ لم يسبق له مثيل، حيث يكرّس نفسه للحياة المنزلية، زرع فيها شعوراً بالدّفء الداخلي.

رفع إليها عينيه الدخانيتين. وما لبث أن اعترف بصوته المثير وابتسامةٍ بريئةٍ فجائية تظهر على شفتيه.

ـ أنا مندهشٌ من نفسي!.

ثم استقام، ووضع الشوكة على الطاولة، رافعاً حاجباً أسود مقوّماً ما فعل.

بعدئذٍ، أسند وركه إلى جانب المائدة، وترك نظراته تسافر ببطءٍ متعمّد من خفّيها حتّى عينيها.

وما لبث أن بدا صوته خفيضاً مثيراً:

ـ كنت محقّاً في إصراري على هذا اللّباس. إن استدارانك جميلة، وحسناً فعلتِ بأن أبرزتها بهذه البلوزة.

كان كلامه الصّريح قد حبس أنفاسها في داخلها. وأحسّت أن قلبها يصرخ توقاً في أحشائها. إن هذا الرّجل ينسف العقل فعلاً! تكفي نظرة واحدة، كلمة واحدة حتّى تخرّ أي امرأةٍ على رجليها! لا عجب أنّها أحسّت

بأنها لا تلائمه، وأنّه بعيدٌ كلّ البعد عن متناولها.

كانت عيناه الضيّقتان الفحميتان تأسران عينيها، فيما اجتاح وجهها لون الخجل. أحجمت شفتاه عن أيّ ابتسامة، لكنّ النظرات في مقلتيه كانت ترقص رقصاً. ثمّ قال بلامبالاةٍ:

ـ إنّها مجرّد ملاحظة. والآن، هلاّ نأكل؟ ما رأيك في الخارج؟.

رفع الصّينية الثّقيلة وتقدّم نحو الباب المفتوح. سحبت كاسي نفساً مرتجفاً وتبعته.

في الماضي، لم يكن عليها إلا أن تنظر إليه، حتى تتملكها رغبةٌ فيه ورغم أنّها رغبت فيه بشدّة لكنّها ظلّت عاجزة عن منحه أي شيء.

لو أن الأمور جرت وفق مشيئته، فإن المهزلة المهينة بكاملها ستكرّر نفسها... إلاّ إذا أقنعته أن كلّ هذا غير ضروريّ.

لمّا لحقت به أخيراً، كان يفرغ محتويات الصّينية فوق طاولةٍ من خشب السّاج في الفناء، وقد ظلّلتها شجرة لوزٍ عظيمة، أحاطت بها جرّات حجرية قديمة مليئة بأزهار الزنبق والقرنفل المعطّرة. بدا لها المكان الموقع الأمثل لوجبةٍ هادئة، أو تمهيداً لشهرِ عسلٍ ثانٍ.

فجأةً، أحسّت بفراغٍ في قلبها فسارعت إلى الجلوس. كان الجوّ حاراً، والظّلُّ قد خيّم عليّ بشرته، مما جعل عينيه تزدادان غموضاً.

ـ لا شك في أنّك جائعة.

وما لبث أن تناول طبقاً فيه شرائح من اللّحم الّذي تمتاز به المنطقة، بالإضافة إلى الزّيتون والخضار الناضرة. وفيما هو يسكب الشراب، تفحّصت عيناه جسدها، وسألها:

ـ بما أنّك رفضت تناول الفطور في الفندق، أخبريني، هل أفقدك شهيتك يا عزيزتي كاسي؟ كنت أراك تنقدين طعامك، لكنّك كسبت وزناً خلال السّنة الماضية، وزناً ملحوظاً جدّاً.

مدّت كاسي يدها إلى رقاقةٍ هشة، فقسمتها، وغمّست طرفيها في

زيت الزيتون. بعدئذٍ، قضمتها بتروٍّ، والتقطت بشوكتها قطعة من اللّحم.

أجابته بصراحة: «لقد أخفتني».

لا شك في أنّ سنة البعد هذه قد منحتها، أكثر ما منحتها، القدرة على إبداء رأيها والتصريح عن أفكارها، فتابعت:

ـ كنت مهجورةً في ذلك المنزل الرّيفي المنعزل، ولا عمل لي إلا تحمّل رفض قريباتك. وحين كنت تظهر فعلاً، بالكاد كنت تلاحظني...

قاطعها:

ـ بل لاحظتك. كلّما بلغ بي الغباء حدّاً دفعني إلى التّقرب منك كنت أرى زوجاً من العيون الخائفة. كنت أرى رعباً. يا إلهي! أمن الغرابة أنني كففت عن المحاولة؟.

سارعت تردّ عليه:

ـ كانت هذه رغبة لا أكثر. كنت تريد وريثاً. هذه في الوظيفة الوحيدة التي أوكلتها إليّ!

ضغطت أصابعها بتشنّج على زجاج كأسها، وأردفت:

ـ حين اتّضح لك أن هذا لن يحدث، تخلّيت عني. لم تكلّف نفسك عناء السّؤال حتى.

ثم تحوّلت إلى الصرّاخ:

ـ ما أردته لم يهمّك قط، أليس كذلك؟ حين طلبت منك، بل توسّلت إليك أن نقيم بعيداً عن العزبة...

ذكّرها بفتورٍ: «كنت تتصرّفين بذعر.. في تلك الأيّام، كان عليّ الرّحيل غالباً».

ـ كان بإمكانك اصطحابي معك.

كان جوابها سريعاً. تمنّت كاسي لو أن الموضوع لا يملك هذه القوة على إغضابها. لقد مات الماضي، فلمَ تعجز عن دفنه؟ أفرغت شرابها دفعةً واحدة وهي تأمل أن يهدّىء من أعصابها.

لكنّه رفض كلامها قائلاً: «كانت أمّي قلقةً عليك. وقرّرت عمّتاي أيضاً أنّك بحاجةٍ إلى الإرشاد والعناية».

فما كان منها إلا أن أحسّت برغبةٍ في قذف كوب العصير الفارغ في وجهه تماماً.

وكأنّه قرأ نيّتها في عينيها، فسارع يملأ سلاحها المحتمل بهدوء، ثم وضع كفّيه على الطاولة ومال نحوها.

أحسّت بالصّدمة وهي ترى خصلة شعره النّاعمة تتدلى على جبينه. أمّا ابتسامته الجذابة التي رسمها فجأة على شفتيه، فجعلته يبدو أصغر من سنواته الست والثلاثين.

قال لها بصوتٍ أجش.

ـ لسنا هنا لنتشاجر يا عزيزتي. نلت أمنيتك. نحن بعيدان عن العزبة وعن قريباتي. والآن، نستطيع أن نكتشف إن كان تصرّفك في غرفة النوم قد تغيّر تغيّراً جذرياً كشكلك وقدرتك على الرّد عليّ.

مدّ يده إليها حتى لمس يدها، فأحسّت بنارٍ تتّقد في جسدها بأكمله وهو يقول:

ـ إنّي أتحرّق شوقاً لاكتشاف ذلك يا زوجتي.

* * *

٥ ـ سأعيد التاريخ نفسه

عزفت النافورة خريرها، وتناثرت المياه في الحوض الحجري الضّحل. ومن الغريب أن صدحت تلك الموسيقى في الصّمت الّذي خيّم على الفناء. كانت النّظرات التي أسبغها عليها والكلمات التي نطق بها، كلّها قد أرسلت موجةً من الارتعاش في داخلها. فسرت القشعريرة في جسدها وأخذ دمها يغلي في عروقها، حتّى حبس منها الأنفاس.

لم تواجه مشكلةً يوماً في مقاومة شكله أو نبرة صوته أو رجولّيته القاتلة. ولم يتغيّر شيء في هذا الخصوص. لكن لا يمكنها أن تتصوّر حتّى أنّها قادرة على جذب رجلٍ بهذا الرقيّ وهذه التّجارب.

أم أنّ هذا غير صحيح؟.

أحسّت أن عظامها تذوب، فأمسكت بكوبها وقالت بصوتٍ أجش:

ـ لا ضرورة لها... أعني مسألة الفراش.

وإذا بها تحسّ أن الاحمرار يجتاح وجهها فيما عيناه الثابتتان لا تنفكّان تراقبانها.

امتدّت أنامله الطويلة إلى طبقٍ، وتناول عنقوداً بكسل. وهو يقول: «فهمت».

سمعته يمضغ الفاكهة النّبيذية اللّون بين أسنانه البيضاء القويّة، ثمّ يضيف:

ـ وكيف تحلّين هذه المسألة؟.

فكّرت وهي تتنفس الصعداء أنّه لم يكن يذكّرها، على الأقل، بالصفة التي عقداها. لم يتّخذ موقف الرّجال الإسبان الّذي ينفثون النّار من أنوفٍ منحوتةٍ بارستقراطية! بدا في الواقع مسترخياً كل الاسترخاء، وقد ألقى بذراعٍ على ظهر الكرسي، فيما مدّ الثانية نحو العناقيد.

بدا رومان في هذا المزاج مذهلاً تماماً. لكأنّها على كوكبٍ آخر! غير أنّها لن تقع أسيرة هذه الصّدمة.

أملت أن تسود هذه الحال حتّى النّهاية، ثم قالت بهدوء:

ـ صحّح لي إن أخطأت.. أنت لم تدبّر صلحنا المزعوم إلاّ لتبعد عن كاهلك عائلتك ودلفينا، أليس كذلك؟.

لم يأتِ على جوابٍ، مضغ حبّة عنبٍ أخرى وأعاد ملأ كوب العصير الذي لم تلاحظ أنه فارغ.

ورغم نواياها الحسنة، ارتفع صوتها قليلاً:

ـ حين تتزوّج ثانيةً، لن تقترن بهذ النّوع من نساء المجتمع المدلّلات والمتطلبات.. ستكون تلك المرأة التي ستختارها آلة إنجابٍ هادئة، ترضى بأن تلازم البيت فيما تلهو أنت خارجاً، إلاّ إن غيّرت رأيك تغييراً جذرياً.

أطلقت كاسي نفساً حانقاً. فليظهر على الأقلّ اهتماماً بكلامها، أو فليوافق عليه، سيّما وأنّها تدرك أنّها محقّة.

ـ لم لا تتفوّه بشيء؟ أيّ شيء! أم أننا نجري حديثاً من طرفٍ واحد؟.

كشفت بسمته المتمهلة عن تساهل وعيناه عن كسلٍ، وما لبث أن أجابها:

ـ لديك رأيك يا كاسندرا. أنا لا أبدي لك إلا الكياسة في إصغائي. لم تقولي حتّى الآن ما يستدعي أيّ تعليق.

ثم ارتفع حاجباه قليلاً، قبل أن يتابع:

ـ إنّي أنتظر بصبرٍ أن أسمع رأيك بخصوص... ماذا سمّيتها؟...

مسألة الفراش.

يا للرّعب الذي اجتاح كيانها! لكنّ فقدان أعصابها لن يعود عليها بأيّ فائدة. فما كان منها إلا أن ردّت بشجاعة:

ـ بالضبط. كنت أحاول أن أضع النّقاط على الحروف. لكنّي آسفةٌ جداً للملل الذي بعثته فيك. إن كنت عاجزاً عن مواجهة الحقيقة وإخبار دلفينا وأفراد عائلتك أن يغربوا عن وجهك، عوضاً عن الإصرار على هذه الحيلة للتّملص منهم...

ها هي الآن قد تحولّت إلى السّخرية. إنّما لا يمكنها أن تخاطر بإغضابه فعلاً، لذا تعمدّت أن ترخي كتفيها وأضفت على نبرتها بعض الرقة.

ـ ما أحاول أن أقوله هو أنني وافقت على أن أعيش معك لأشهرٍ ثلاثة. لكن بالنسبة للفرقاء المعنيّين في المزرعة، سيبدو لهن ذلك محاولةً لإنجاح زواجنا. وضعنا هذا يكفي إذاً. فهن لا يملكن جواسيس هنا، ولا آلات تصوير خفية في الغرف كافة. لا داعي أبداً لتتشارك الفراش إذاً.

ها قد قالتها أخيراً. كتمت أنفاسها وهي تشعر بقطرات العرق تتجمّع عند جبينها وانتظرت ردّة فعله. لا شك في أنّه يعرف أن مشاركتها العيش معه كفيلٌ وحده بأن يبعد عنه دلفينا العزيزة والقريبات اللّواتي يذكّرنه بالزّواج. لا شك في أنه لا يرغب في تكرار التّجربة المذلة والمحبطة التي عاشاها قبل ثلاث سنوات...

ضاقت العينان الدّخانيتان ومطّ صاحبهما رجليه الطويلتين تحت المائدة، وأرجع يديه خلف عنقه. اتّسمت تعابيره في ظل شجرة اللوز الأخضر بالغموض.

ـ هل تتناولين حبوب منع الحمل يا كاسي؟.

حملقت فيه بعينين متّسعتين. لقد نجح، في حفنةٍ من الكلمات لا غير، أن يشلّها عن الحركة تماماً. ما دخل تناولها لهذه الحبوب بأيّ

موضوع؟.

ـ هل تتناولينها؟.

أجابت بتذمّر وقد أحسّت بالحرارة تجتاح وجهها كلّه: «أجل».

ـ فهمت.

على الرّغم من أن نبرته أوحت بالرّقة، لكنّ وميضاً خطراً داكناً لمع في عينيه، فيما غيّر موضعه وتقدّم قليلاً نحو الأمام: «ومن هو الرّجل المحظوظ؟ ابن عمّي غاي؟ كان يرمقك بنظراتٍ غرامية خلال زيارتك الأولى، حين كان يعتقد أن أحداً لا يراه. لا شك في أنك اتّجهت إليه حين هجرتني».

ـ لا تكن سخيفاً!.

تململت في مكانها بانزعاج. يا لغاي المسكين! لم تكن تملك أدنى فكرة عن المشاعر التي يكنها لها. فخلال تلك الزيارة المشؤومة، لم تكن توجّه أنظارها إلاّ إلى رومان.

ـ من هو إذاً؟.

بدا لها خطيراً، يصعب التنبؤ بتصرّفاته. صحيحٌ أن وضعيّته قد توحي باسترخاء مدروس، لكنّها تعرفه أكثر من ذلك. أحسّت أنه على وشك الانفجار، لا بل إن مجرد لمسة قد تجعله يقدح شرراً في كلّ اتّجاه.

رغم انفصالهما الذي دام قرابة السّنة، ما زالا زوجاً وزوجةً، وإن كان يظنّها صادقت رجلاً آخر بعد أن هجرته، فلا بدّ من أن سكّين الثّقة التي انغرزت في كبريائه القويّة ستولّد انفجاراً شديد الوقع.

ـ ما من أحد. لقد نصحني طبيبي بتناول الحبوب حتى تنتظم دورتي الشهرية. ما من سببٍ آخر.

ثم أضافت بتكلّف: «فبخلافك، أنا لا أنظر إلى الإثارة على أنّها بداية كلّ الطرق ونهايتها».

ـ أنا متأكّدٌ تماماً من هذه النقطة يا زوجتي.

لوى فمه بسخرية. قبل أن ينزل ذراعيه ويرجع كرسيّه ثم يردف:

ـ أختار أن أصدّقك. أرجو أن تتفهمي سؤالي. فمن الضّروري أن يلجأ أحدنا إلى وسيلة حماية.

إذاً، ليس مستعدّاً ليصغي للمنطق!.

أحسّت بقلبها يقفز بين أضلعها، ويصفّق بجناحه كطيرٍ خائف. لكنّه لن يعرف هذا. لن تشبع حتّى رغبته في رؤيتها أسيرةً للذّعر.

ـ حماية؟ وأنا التي ظننت أنّك ما تزوجتني إلاّ لتؤمّن وريثاً!

كان صوتها هادئاً إلى أبعد درجة، لا بل إنها نجحت في أن تضفي عليه نبرةً من التّسلية. ولمّا اشتدّت عضلات وجهه، علمت أنّها مسّت وتراً حسّاساً.

ـ أريد وريثاً فعلاً، لكن ليس وليد الحقد.

الحقد؟ ماذا يعرف عن حكايتها حقاً؟ ماذا يعرف عن قلبٍ وحيد تمنّى يوماً لو تتبدّل الأحوال، لو يفهم هذا الرّجل مخاوفها، لو يدرك كيف كرهت واحتقرت نفسها بسبب ضعفها!

كم كانت تحبّ أن تنجب ولده، أن تؤسّس معه بيتاً حقيقياً مليئاً بالحب، بعيداً عن قريباته البارعات في النّقد.

وقفت بسرعةٍ وقد أزعجتها نظراته. لو لم يكن بهذه الوسامة الطاغية، لاستطاعت أن تتعامل معه بنجاح.. لاستطاعت أن تنسى أنّها أحبّته ذات يوم. لكنّهما الآن قريبان جدّاً من بعضهما بعضاً.

عادت كاسي خطوةً إلى الوراء. حاولت ألا تفكّر في أنّهما سيكونان أكثر قرباً بكثير متى أجبرها على تنفيذ صفقته الشيطانية. إنما لا داعي لتعير هذه الفكرة اهتماماً قبل أوانها.

فجأةً أشار بيده الضّخمة إلى الطّاولة بحركةٍ غامضة.

ـ إذاً... هل نرفع الأطباق ثم نغسلها؟ ثمّ ما رأيك في قيلولة؟.

بعد أن تغيّر مزاجه فجأةً، ورسم ابتسامةً جذابةً بطيئة على وجهه،

أحسّت بأنفاسها تنحبس من جديد. لكن سرعان ما استعادت رباطة جأشها وتمالكت نفسها قبل أن تلتفت بعيداً وتقول له:

ـ لقد صرفت الخدّام، فاغسل الأطباق بنفسك. أما مشاركة الفراش أثناء العصر، فلم تكن جزءاً من الصفقة كما أذكر.

ومضت بعيداً.

فيما هي تخطو تحت القنطرة المكسوّة بالأزهار، قرب الحائط الحجريّ الذي يفصل بين الفناء والحدائق المتسعة، أحسّت بقشعريرة تسري في بدنها، وكأنّ طائفةً من النّمل بأحذيةٍ شائكة تجوب جسدها كلّه. لا شكّ في أنّ بمقدوره أن يأمرها بالرّجوع في الحال. وباستطاعته أن يجبرها على هذا في حال أبت التّنفيذ.

لكنّه لم يفعل. لم يعكّر صفو هذا العصر الإسباني الطّويل إلاّ هدبل اليمامات النّاعسة، والنّسيم الخفيف بين أوراق شجر الإكاليبتوس المتمايل برقة. ولم يكن منها حينذاك إلا أن أطلقت نفساً مرتعشاً.

لقد تأجّل العقاب!.

لكنّ التّأجيل لن يدوم طويلاً. بل حتّى المساء وحسب. هل تراها تمانع؟ هل تمانع فعلاً؟.

ما إن وقع السّؤال المزعج عليها حتّى تسمّرت في مكانها، وقد أحسّت أن قدميها قد ألصقتا إلى الممرّ الضيّق. وإذا بمشاعر عنيفةٍ حادّة تختلج في أعماقها، وإذا بجفونها تنعصر عصراً على الرّغم منها. اتّسعت رئتاها برائحة هائجة فيها مزيجٌ من أريج الزنبق وعبير الخبّيزة القويّ ورقّة الورود.

أجبرت نفسها على فتح عينيها. أيّ نوع من الأسئلة التّافهة كان هذا؟ إنّها تمانع طبعاً! فهي تمقت فكرة أن يستغلّها إشباعاً لفضوله الفاسد، وعقاباً على ما اقترفه توأمها!.

أيّ امرأةٍ عاقلة قد ترغب في أن يجرّها رومان إلى سريره؟ أجابت

نفسها بصدقٍ أنّهن كثيرات وكثيرات. ولن تكون المشكلة حينها مشكلة جرّ أو إكراه.

تململت وقد أزعجتها أفكارها، ثم سارت قدماً حول شجيرات الأزهار الكبيرة، متجاوزةً الكوخ الصّيفيّ المكسوّ بورودٍ حمراء داكنة. توقّفت أخيراً عند الحواجز الخشبية التي تفصلها عن الوادي الضيّق العميق. كانت الأشجار الباسقة تمنح ظلالاً وارفة. تناهى إليها من بعيد صوت التيار، تتساقط مياهه من التّلال إلى الصّخور المغطاة بالطحالب. كان المنظر مغرياً. ففي هذه الساعة من اليوم وهذا الوقت من السنة، كانت الشمس الأندلسية لا ترحم.

شعرت وكأنّها تذوب. كانت ملابسها تلتصق بجسدها الحارّ أكثر فأكثر، فيما ألمٌ يستبدّ بصدغيها. لكن لا مجال للنّزول، وفي رجليها من التّنمّل ما يمنعها عن الوصول إلى هناك سالمة.

لا بدّ من أن رومان يتمدّد في البهو، إلى جانب مروحةٍ كهربائية. ترطّب له الأجواء، وشراب بارد في يده. أمّا هي...

ـ أنت تعاقبين نفسك.

بدا صوته بطيئاً هادئاً، فيما استرخت يداه على كتفيها برقّةٍ بالغة. لم تكن قد سمعته يتقدّم نحوها، رغم ذلك، فإنّ نبرة صوته الذي اخترق صمت الحدائق الناعسة، ولمسة يديه لم تجفلاها قط. لكأنّها كانت تعلم أنه قادمٌ إليها ولكأنها كانت تنتظره.

فيما كانت أنامله تنتقل فوق بشرتها المحترقة، قالت بينها وبين نفسها: لا، أنت من يعاقبني. أنت من يدفعني إلى مواجهة ما لا أحبّ أن أواجهه في نفسي... الخوف والجبن.. كان يجدر بي أن أفصح لك عن خوفي، كان عليّ أن أجبرك على الإصغاء. لكنني لم أكن شجاعة بما فيه الكفاية.

ـ الشمس الحارقة تحرق جلدك.

رفع خصلاتها الكثيفة عن عنقها، فاضطربت انفاسها خاصة حين أحسّت بملمس شفتيه على عنقها.

تناهت إليها تمتماته: «لك مذاق الملح... والنّساء».

كان ذهنها يعوم في عالمٍ خاصّ به، بتأثيرٍ لم يكن له صلة بتأثير شمس العصر الحارّة. أرادت أن تبتعد عنه.. أن تضاعف من المسافة التي تتزايد بينهما منذ ليلة زفافهما، لكنّ رجليها لم تطاوعاها.

عوضاً عن ذلك، قالت بصوتٍ مرتعش: «كنت أفكّر في النّزول إلى هناك، نحو الظلّ».

وما لبثت أن تهالكت بضعفٍ عليه، فيما سافرت يداه على ذراعيها الطريتين حتّى استقرّتا على مرفقيها.

لو أنّه أتاها قبل سنةٍ، وأغدق عليها هذه اللّمسات، لفرّت كأرنبٍ مذعور، وهي تخشى أن يتوغّل في اكتشافها ويعرف كم هي جامدة!.

أما اليوم، فهي عاجزةٌ عن أيّ حركةٍ. كان جسدها يريد أن يلازم مكانه، قريباً منه، فيما عقلها رفع راية الاستسلام.

ـ لديّ فكرةٌ أفضل.

وهنا، جالت يداه فوق جسدها، قبل أن تحطّا الرّحال حول خصرها. بعث وقع أنامله الخفيف مزيجاً من الصّدمة والتّوتر المحموم فيها. كان يضمها إليه الآن.. أرادت أن تصرخ، وكادت تستجيب لرغباتها لولا أنّه لحسن الحظ كسر حبل الصّمت:

ـ سنعود إلى المنزل حيث تغتسلين وترتاحين وحدك.. لن أزعجك، إن كان هذا سبب بقائك في الخارج وتعرّضك لضربة شمسٍ محتملة. سنخرج لاحقاً لتناول العشاء. فقد ضقت ذرعاً بغسل الأطباق!.

ثم ابتعد عنها متّجهاً نحو المنزل بتراخٍ ورشاقة، فتبعته، وعلى وجهها نار تستعر.

لم يكن قد لاحظ كيف اكتسب جسدها هذا اللّين، وهذا الشوق إلى

لمسانه، أو كيف استحالت أنفاسها قصيرة. لكن، لمَ يفعل؟ فوفقاً لتجربته المحدودة معها، لم تستجب له قط. لا يمكن أن يتوقّع منها أن تتغير.

هنا، يفرض السؤال نفسه: لمَ يأمرها بمشاركته الفراش إذاً؟ ليعاقبها.

كل هذا يعني أنه قاس، يملك قلباً متحجّراً ويعتبرها مجرّد اختبار لا أكثر ولا أقل. نتيجته التّخلّص من دلفينا وعائلته طبعاً.

لكنّها ستجتاز محنة الأشهر الثلاثة من أجل روي. وإن كان رومان يتوقّع امرأةً خشبية في سريره، فهذا ما سيحصل عليه. أما بخصوص الرغبة المؤلمة التي استبدّت بها قبل لحظات، فلا داعي للقلق بشأنها.

أرادت من رومان أن يحبّها ليلة زفافهما، لكن حين سألها الحبّ فعلاً، استحالت كتلةً من الجليد. وسيعيد التاريخ نفسه الليلة. سيملّ سريعاً هذه اللّعبة التّافهة وينتقل إلى غرفةٍ أخرى.

وهنا، سيسدل السّتار.

***

٦ ـ لم أنسَ

ـ أتسمح لك حالتك بالسّير حتّى المنزل؟.

كان صوت رومان مثقلاً بتسليةٍ ساخرة ردّت عليها كاسي بانّساع عينيها العنبريتين المتلألئتين.

ـ يبدو أنني مشيت فترة لا بأس بها.

نظر إليها نظرة طويلة قيّمتها من رأسها حتّى أخمص قدميها. فإذا بـ كاسي تشعر بازدياد الإثارة التي نسجت حبائلها بينهما طيلة المساء. كان النّسيم يعبث بثوبها القطني الضيّق، ممّا جذب نظراته إلى حناياها النابضة بالحياة، وكأنّ عينيه لمسات عاشق.

ضايقها وجوده، ضايقها أن تتّخذ أبداً ذلك الموقف الدّفاعي. ورغم ذلك، فهذا المساء الّذي قضياه في مطعم صغير في باريو ألتو، حيث أقدم جزءٍ من الميناء، كان رائعاً من البداية إلىّ النّهاية.

أدركت وهي تتناول يده الممدودة أن دواراً قد تسلّل، على الرغم من ذلك، إلى شرايينها، فأشعل نار مشاعرها حتّى صارت في حالة هذيان، تتوق إليه قلباً وقالباً، وتكاد تتوسّل إليه كي يضمّها بين ذراعيه، وكلّها أملٌ ألا تتجمّد أمامه ثانية.

أدركت فيما هما يسيران ببطء على طول الطرق الضيّقة العتيقة،

www.elromancia.com

والدّوار يستبدّ بها، أنها أبعد ما تكون عن الشعور بالجمود أمامه. كان النّسيم دافئاً يحمل إليها رائحة البحر والنّهر وعبير أشجار البرتقال التي أحاطت بهما من كلّ جانب.

إنها تنتمي إلى هذا المكان فعلاً. فهو يزرع فيها شعوراً غامراً بالسّعادة، خاصة إن كان هو إلى جانبها.

أخيراً، هتفت بتنهيدةٍ قصيرة:

ـ نسيت كم هي مريحة هذه الزاوية من إسبانيا.

وما لبثت أن ألقت برأسها الكستنائي الشعر على كتفه القوية. وأحاط خصرها بذراعه سعياً لمزيدٍ من الدّعم، ثم سألها بسخرية:

ـ أتعنين الأندلس؟ لم تعد الطريق طويلة، كدنا نصل إلى البيت.

كم يبدو وقع هذه الكلمة جميلاً! وكأن الحقيقة أكبر من أن تصدّق. ترقرقت دمعةٌ في زاوية عينيها. لوأنّهما عاشا حياتهما الزّوجية هنا، بعيداً عن...

فجأةً، زلّت قدمها فوق حصاةٍ غير مستوية، وزلّت معها كلّ الذكريات التّعسة ما إن تمتم رومان بشتيمةٍ وحملها بين ذراعيه بقيّة المسافة، متجاوزاً مدخل البيت الحجري.

تمتمت وهي تعلم أن الكلمات تخرج من فمها بغموضٍ: «لم تحملني هكذا في شعر عسلنا».

أثّرت فيها ذراعاه تأثيراً كبيراً فالاحتكاك بهذا الجسد الناضج بالرجولية والجاذبية دفع قلبها إلى الخفقان بجنون..

أجابها وكأنّه يحاول أن يضحك طفلاً صعب المراس:

ـ كان أمامنا جمهور، ألا تذكرين؟ وكنت أنت من الخجل ما منعني من إحراجك. كان أدنى تصرّفٍ يدفعك إلى الاحمرار كالشمندر والهروع للاختباء.

لم يكن أمامها إلاّ أن تقرّ بوجهة نظره. فقبل ثلاثة أعوام، كانت

جبانةً.

ـ أذكر هذا، كما أذكر كيف تجمّع كلّ الخدّم ليقوّموا عروس السيّد الجديدة. حدّقوا فيّ حتّى أحالوني أشلاء..

أحسّت بالتوتّر يجتاح جسدها كلّه، وكأنّ السّاعدين اللّذين يحملانها استحالا قضيبين من الفولاذ. لفّت ذراعيها أكثر حول عنقه. ما همّ الماضي الآن؟ إنّهما وحدهما في هذه اللحظة، وهذا الأهمّ. فما من قريبات يتعجّبن من زوجة السيّد غير الملائمة بتاتاً!.

لكنّ ذلك لن يزعجها الآن طبعاً. وفجأةً، أحسّت نفسها حرّةً، وكأنّها سيّدة نفسها قادرة على مواجهة أيّ كان وأيّ شيء كان. والأهم أنّها لم تعد تخشى تخييب أمل رومان في الفراش.

وصل إلى الرّدهة المعتدلة البرودة، الخافتة النور. فتمتم:

ـ يا لأفكارك الغريبة! لكن متى مُنحتُ امتياز اكتشاف أفكارك؟.

ألأنّه لم يسألها عنها يوماً؟ أم لأنّها لم تخبره بنفسها؟ من يتلقى اللّوم على غياب التّواصل بينهما؟ أكلاهما بالتّساوي؟.

لم تكن حالة كاسي تسمح لها بالإجابة عن رأيه. ففي هذا الوقت، كانت مشاعرها مجنونة خالية من التّعقل. توقّعت منه أن ينزلها أرضاً، غير أنّه لم يفعل، بل حملها على طول السّلالم وكأنّها لا تفوق الهريرة حجماً.

لن تمثّل هذه الأمسية مشكلة. ففي هذه الليلة، شعرت بأنّها أكثر استعداداً له..

لقد بدت لها صفقته الشيطانية تدنيساً من أسوأ نوع. لكنّ تلك الصّورة تلاشت هذه اللّيلة. فاللّيلة، ستمنح زوجها الحبّ، وتستجيب بكل جوارحها لرجولته الصارخة الجذابة، كل هذا في إطارٍ من الطبيعية الكاملة.

أطلقت تنهيدةً طويلةً حافلةً بالتوقعات السّعيدة بينما شقّ طريقه إلى

جانب السرير الكبير الغارق في نور القمر الذي تسلّل من النّوافذ.

كانت ذراعاها ملتفتين حول عنقه، وأخذت كاسي تحدّق في ملامحه القويّة الآسرة، فاجتاحتها مشاعرها المجنونة كالصّاعقة، وجعلتها تترنّح على رجليها وهي تتنفس بسرعةٍ.

حاولت أن تتلفظ باسمه لكنّ لسانها لم يطاوعها، ففغرت فاها بلا جدوى. فمنذ أن وصلا إلى هذا المكان في الصّباح وحواسها كلّها تنتبه إليه وتناديه. فما كان منها إلا أن حاولت تجاهل الأمر، كارهةً أن تكرّر تجربة ليلة زفافهما.

لكنّها عرفت الآن أن تلك التّجربة لن تتكرّر، فالسنة المنصرمة قد تكفّلت بمنحها قدراً من الرشد والنضوج.

تمتم رومان بصوتٍ خالط أنفاسه: «يا إلهي!».

ومن دون أي مجهود يذكر، جذبها إليه أكثر. كتمت كاسي أنفاسها وقلبها يخبّط بعنف.

عند هذه اللّحظة، أصبحت حاجتها إليه أقوى من الحياة نفسها وهذا ما جعلها بالكاد تنجح في الوقوف على قدميها.

كانت يداها تطالبان به أيضاً. غير أنّه دفعها عنه بحركةٍ حازمة مفاجئة، ثم أزال الملاءة الحريرية عن السّرير ونصحها بتجهم:

ـ نوماً هنيئاً يا كاسي، لا أظنك تريدين بالفعل ما تدعينني إليه.. إنك تحاولين التخلص مما أنت خائفة منه، لكني أحمل إليك خبراً يا زوجتي. إنّ هذا يصيبني بالاشمئزاز التام.

تقدّم نحو الباب قبل أن يتوقّف ويضيف بنبرةٍ ساخرة:

ـ سأنضمّ إليك لاحقاً، إنّما اطمئني، فلن ألمسك. لذا، فليكن سباتك عميقاً.

***

٧ ـ كيف أحبّه بعد؟

تململت كاسي باضطراب، وما لبثت أن استيقظت. تمنّت لو أنّها لم تفعل. فأثناء النّوم، لا يعيش المرء مشاهد الإذلال من جديد. أثناء النوم، لن تذكر كيف أخمد صقيع كلماته الحرارة التي استقبلت بها هذه اللّيلة.

كان اللّيل في منتصفه والحجرة غارقة في ظلام دامس. لقد بكت بحرقةٍ حتى نامت من التّعب، ونسيت أن تطفىء المصباح بجانب سريرها. ولا شك في أن رومان قام بإطفائه.

وإذا بها، للمرّة الأولى منذ استغراقها في صخب أفكارها الداخلي، تسمع صوت تنفسه. فما كان منها إلا أن حبست أنفاسها، وقد توتّر جسدها تحت الأغطية الحريرية الرفيعة.

لقد انضمّ إليها، كما قال. لكن السرير كان واسعاً جداً، وقد اختار التّمدد على طرفه، متعمداً أن يبعد المسافة بينهما قدر استطاعته. لقد قال لها إنه لن يلمسها ووفى بوعده.

في البداية أرادت أن تقدم على هذا الأمر لتتخلص من إرباكها، ألا يقول المثل إن خفت شيئاً فقع فيه؟ ولكن خطتها تغيرت في وقت ما من ذلك المساء.

متى؟ لا تذكر بالتّحديد. لكن كان ذلك حين أدركت أنّها ما زالت تحبّ زوجها. أحبّته وستحبّه دوماً!

لم ينزل عليها هذا الإدراك نزول الصّاعقة، بل كان ينتشر في داخلها رويداً رويداً، وكأنّه وردةٌ تتفتّح بتلاتها ببطء. ثم أصبح الخبر حقيقةً في داخلها، مع كلّ نفس ولج صدرها.

إنها تحبّه كثيراً. أحسّت بقلبها يخفق ثم يلتوي قبل أن يستقر في حلقها.

قبل أن تتحلّى بما يكفي من الشّجاعة لتهجر رومان، كانت حياتها معه ملطّخةً بالأخطاء، أخطاء كثيرة، لعلّ أعظمها عجزها عن التواصل معه ومشاركته أحاسيسها.

لكن ذلك لن يتكرّر ثانيةً!.

مهما خبأ لها المستقبل، الّذي لن يتجاوز الأشهر الثلاثة على حدّ علمها، فهي تدين له بالصدق والصراحة. وستستهلّ ذلك بأن تخبره بأن فكرة قضاء الليل معه لا تملؤها توتراً!.

أسندت نفسها على مرفقها، وراحت تقلّص المسافة بينهما. كانت عيناها قد بدأتا تألفان الظلام، فأبصرت ملامح شعره الداكن الجميل على الوسادة البيضاء. وكشف الغطاء عن عضلات ظهره المتوتّرة المغرية.

مرّت يدها نحوه وقلبها يترنّح وحلقها جاف. فانسابت أناملها بحنانٍ من عنقه الدافىء، إلى كتفيه حيث راحت تتحسّس كتفيه كما لم تجرؤ من قبل.

كانت ذراعه بجانب وجهه تغطيه، مما منح أصابعها الرقيقة الحرية.. في هذه الأثناء، كان قلبها يخبط بعنفٍ وهذا ما صعّب عليها التّنفس.. باستطاعتها أن تتلمسه فعلاً إن أرادت، وهي تريد ذلك حقاً. لكن ألن يعتبر ذلك خرقاً لخصوصيّته؟ لا سيّما أنه نائم؟.

ما كان منها إلا أن أجبرت يدها على السكون. ومن غير أن تزيحها عن مكانها، سحبت نفساً عميقاً، ثم مالت إلى الأمام وطبعت قبلةً على كتفه.

حينئذٍ، لم تستطع إلاّ أن تزيد من اقترابها منه. كان عقلها قد توقّف

كلياً. فقربها منه يحبس أنفاسها ويدفع قلبها إلى الخفقان بقوة لم تعهدها.. ولم تستطع في هذه اللحظة أن تتصوّر لماذا عجزت عن التجاوب معه في ما مضى.

لكن، ماذا لو رفضها، كما رفضته من قبل وكما أبعدته كلّما حاول الاقتراب منها، منذ ليلة زفافهما الغريبة... لو فعل هذا، فستصاب بإحباطٍ وذلٍ عظيمين...

كتمت أنيناً مؤلماً قويّاً، وقد أدركت للمرّة الأولى كيف شعر، ولمَ ابتعد عنها غالباً بعد مدّة.

فجأةً، أحرقت الدّموع مقلتيها. كيف استطاعت أن تسبّب له هذا الأذى، وهي تكنّ له هذا القدر من الحبّ؟ كيف كانت بهذه الأنانية، فانجرفت مع سلوكها الطّفولي من غير أن تبالي البتة بمشاعره؟.

سقطت دمعةٌ من الندم المرير على كتفه. في هذه اللحظة، تناهى إليها أنين خافتٌ عميقٍ في حنجرته.

أهو مستيقظ إذاً؟ ومنذ متى؟ متى تغيّر نمط تنفسه فعلاً، فأضحى أسرع وأقل عمقاً؟ تجمدّت أطراف كاسي. لم تستطع إلا الانتظار. فقد أصابها الفزع من أن تنقلب الأحوال عليها انقلاباً تاماً. فجأةً، ارتفع صوته الأجشّ بالطلب:

ـ لا تتوقّفي يا كاسي..

ودار رأسها بعنف فيما تأوّه بخشونةٍ واستدار نحوها، يكاد يسحقها بين ذراعيه.

ـ مهلاً...

حرّرت يدها، ورفعتها لتلامس وجهه برقّة. كان كفّها يحتضن فكّه القويّ الخشن. قالت أخيراً:

ـ أريد أن أخبرك أنني لم أتقرب منك رغبة مني في الوفاء بوعدي.. فوجودك معي هو الذي وترني.

إن كان قد صدّقها، فهذا ما لم يعلن عنه. لكن ربّما كان عناقه خير جواب. هذا التعطّش إلى السيطرة الذي زرعه في عناقه جعلها تشعر وكأنها غريقةٌ. كان وجودها بين يديه يعذبه في الوقت نفسه ويدفعه إلى حالةٍ من الهذيان حيث تموت لغة الكلام.

لكن من يحتاج للكلمات حين تتلاقى روحان حنونتان... في عتمةٍ ليلةٍ إسبانية فيها من الدّفء وطيب الرائحة ما يبهج النفس؟.

ـ لو لم أكن أعرفك، لقلت إنك لست المرأة التي تزوّجتها.

بدا صوت رومان الذي ارتفع قليلاً، ناعماً مثيراً. فابتسمت كاسي لعينيه الداكنتين على نحوٍ حالم.

من خلال نبرة صوته، عرّفت أنّه أحبّ المرأة في سريره أكثر من تلك التي تزوجها. لن تخمد الشعلة السّحرية التي ولدت بينهما، فتذكّره أنّه اختار امرأةً مطيعة غير ناضجة لتكون زوجته.

عند الفجر تقريباً، خلدا إلى النّوم بين ذراعي بعضهما بعضاً. ولم يمض وقتٌ طويل، حتّى أيقظها على وقع لمسانه. كانت الليلة الماضية مثيرة، ولم يبدُ أن أيّاً منهما قد اكتفى بالشرب من نبع الآخر، وكأنهما أشبه بجائعين أمام وليمة.

مرّر أصابعه في خصلاتها الحريرية الطويلة المنبسطة فوق الوسادة، وتمتم لها:

ـ لك الشعر الجميل نفسه.. العينان نفسهما، كأرقى أحجار الفيروز، لكنّهما تحملان نوراً لم يكن موجوداً من قبل.

فمدت يديها خلف رأسه، وجذبته إليها. كان عناقهما أشبه بمخدّرٍ، جعلها تفقد السيطرة على نفسها تماماً. حين توقّف أخيراً، أطلقت تنهّداً حافلاً بالرفض.

ومضت عيناه خطراً، ثمّ لوى فمه وتمتم:

ـ صبراً يا زوجتي، لم أفرغ من جردتي بعد. تساهلي معي.

ألقت بيدٍ مرتجفة على صدره العريض: «أتحبّ تعذيبي؟».

ـ بل أعشق ذلك.

تفوّه بالكلمات بنعومةٍ. كانت عيناه الرماديّتان تومضان خلف أهدابٍ سوداء كثيفة. وتابع:

ـ نعم أعشق ذلك بقدر ما أعشق لمسك، والنّظر إليك. كاسي، عزيزتي.. لقد نضجت بأروع طريقة.

اقتربت كاسي نحوه، وقد شعرت أنّ الماضي البعيد صار وراءها، وأنّ باستطاعتها أخيراً أن تظهر له كم تحبّه.

فجأةً، رأت عبوساً، مرّ كالطيف على وجهه، وتوتّر وجهه وهو يسحب نفساً عميقاً.

أحسّت بتعكّر الأجواء. ألم تسعده كما ظنّت؟ رغم ما قاله للتوّ، هل شعر فجأةً أن لهفتها مثيرةٌ للاشمئزاز؟ كسا غشاء من القلق عينيّ كاسي فيما مدّت يدها نحو وجنته:

ـ رومان؟.

كان يكفي لمسة منها، نبرة من صوتها، ليتلاشى العبوس فجأةً، ويذوب الجمود الذي تحكّم بجسده للحظاتٍ.

لم تعرف أنّ الليلة ستنحو هذا النحو. كان التّعبير عن الحبّ إدماناً، لا يستطيع المرء الاكتفاء منه. لحسن الحظ، مهما كان القلق الذي عكّر صفوه لبرهةٍ، فقد أصبح الآن طيّ النّسيان. أو لعلّها تخيّلت الأمر ليس أكثر...

ـ لقد انقضى اليوم بنصفه. ماذا تريدين أن تفعلي الآن؟ ما رأيك في نزهةٍ على الشاطىء؟ أو لعلّك تفضّلين مطعماً؟.

أقرت بصوتٍ أجش وعيناها الذهبيتان تشعان عاطفةً رقيقة:

ـ بل أفضّل البقاء هنا.

منحها رومان ابتسامةً عريضة كشفت عن أسنانٍ بيضاء إزاء بشرةٍ

برونزية اللّون.

ـ كنت آمل أن تقولي هذا، ففي عزلة بيتنا الخاص، تحدث أمورٌ أكثر إمتاعاً.

جذبها إليه، فاجتمعا في عناقٍ ناعمٍ صغير، ثم أردف:

ـ سأعدّ القهوة، وأحضّر طعاماً. انزلي متى أصبحت مستعدّة. كاس...

كان عند باب غرفتهما حين أضاف: «إلبسي ثوباً جميلاً!».

سادت بينهما موجاتٌ من الحب أصابتها بالدّوار. أرادت أن تبقى معه هنا للأبد، وحدهما وحسب.

وحدهما؟ تذكّرت فجأةً أنّها نسيت تناول حبّتها أمس. قد يشكّلان ثلاثياً منذ الآن! فما جمعهما الليلة الفائتة لم يكن بسيطاً.

لكن هذا لا يهم، أليس كذلك؟ لا شك في أنه سيرغب في بقائها، في إنجاح زواجهما، بعد التّحول العظيم الذي شهداه! لم يدّعِ يوماً أنّه يحبّها، لكنّه بعد ليلة أمس، سيلقي طبعاً بماضيهما المضطرب أدراج الرّياح ويبني معها بدايةً جديدة.

طبعاً سيفعل ذلك! . وحتّى لو أنّه لا يحبّها، فالحب يولد وينمو، أليس كذلك؟ .

جالت في الغرفة، وقشعريرة من الإثارة تتغلغل في داخلها من جديد. ترى، أيٌّ من ثيابها الجديدة سيكون الأجمل والأكثر جاذبيةً؟ .

***

٨ ـ من علّمك؟

علّق رومان بهدوء: «أنت بالتّأكيد امرأةٌ مختلفة اليوم».

بدأ مرتاحاً، وقد ألقى بذراعه على المقعد، فيما أنامله تداعب خصلات شعرها النّحاسية المنسدلة على كتفيها. ارتسمت على ثغره ابتسامةٌ مسترخية لم يبلغ صداها عينيه، فبدتا حذرتين في خضم الفجر الضّبابي الّذي لم ينبلج نوره تماماً بعد.

ـ أبسبب تلك السنة التي قضيتها بعيدةً عنّي وعن إسبانيا؟ هل أسعدتك العودة إلى إنكلترا؟ .

أشاحت كاسي بنظرها سريعاً، ثمّ رفعت قدميها إلى المقعد.

لم تكن تريد حقاً أن تمنح سنة الفراق تلك لحظةً من تفكيرها، ولا حتّى السّنتين اللّتين سبقتاها. فما بدأ كصفقةٍ ماكرةٍ باردة أصبح الآن شهر عسلٍ ثانٍ، حقيقيٌّ ورائع في آن. لم تكن تريد أن تفسد هذا السحر.

مرّت عليها أسابيع خمسة من السعادة الزوجية، من الأيّام الملوّنة بأشعة الشمس الكسولة، من الليالي العطرة، من شغفٍ ينفجر عنيفاً في أماكن غير متوقعة أبداً، لا بل في أزمنة فجائيةٍ تماماً. شرعت تتعرّف إلى هذا العاشق، في جنّتهما الصّغيرة المنعزلة. فهذا الانفصال عن العالم الخارجي قد غلّفها في ملاذٍ من الخيال السحريّ.

لكنّها ما لبثت أن أقرّت رويداً رويداً أنّ الواقع يوشك، للأسف، أن

يطلّ. فلا شكّ أنّه سيرغب في معرفة السبب الذي دفعها إلى تركه.. ولن يأملا ببناء مستقبلٍ زاهٍ إلاّ بقلب ماضيهما رأساً على عقب. لا بل إنّها في حال جابهت الحقيقة بعدلٍ وشجاعة، ستقرّ أنّها تجهل إن كان يريد منها البقاء لما يزيد عن الأشهر الثلاثة التي حدّدها.

هذا إلى أنّها متأكّدة تمام التأكيد من أنّها حامل.

أخذت نفساً من أعماقها. لم يبق أدنى شك: كان هواء الواقع البارد مزعجاً حقاً.

أعلن رومان بصوتٍ بدا أنّه تحكّم فيه:

ـ هذا الموضوع يهمّني، حتّى وإن كنت تفضّلين عدم التّفكير في زواجنا الفاشل.

رجّعت صدى كلمته الأخيرة بارتجاف: «فاشل؟».

أبعدَ هذه الأسابيع المذهلة الماضية، ما زال يعتقد أنّ زواجهما وليد غلطة؟ كيف يعقل هذا وقد أضحيا بهذا القرب؟ كانا قريبين جسدياً على الأقل، رغم أنّها كانت تشعر أحياناً أنّ شعوراً ما دأب على إرباكهما.

أخذ نفساً بفروغ صبرٍ وأمرها بفظاظة: «انظري إليّ حين أكلّمك!».

وسرعان ما وضع يديه القويّتين على وركيها وأدارها نحوه، فنزلت قدماها على الأرض المبلطة وباتت تواجهه.

كان بمقدور كاسي أن تشعر بغضبٍ كامنٍ فيه كاد يدفعها إلى النّحيب، فما زال بينهما خطبٌ كبير، عليها أن تواجهه لا أن تخفيه مدّعيةً أنّه من نسيج مخيّلتها. وما لبثت أن سألته بقدر ما أمكنها من الهدوء:

ـ رومان، فيمَ تفكّر؟ لا شك في أنّ أمراً معيناً يشغل بالك؟.

طالعتها عيناه المهمومتان. وحاولت ألا تظهر قلقها، بل خوفها الحقيقي.

ـ كنّا سعيدين معاً. لكنّك كنت تنعزل بنفسك أحياناً، وترمقني بنظراتٍ مليئة بالاشمئزاز. أريد أن أعرف السبب.

منحها نظرةً حادّة، وزمّ فمه قبل أن تفلت منه الكلمات فجأةً:

ـ حين تزوّجنا، ظننت أنّ بوسعي أن أرضيك، لا بل أن أسعدك. لكن بعد ليلة زفافنا، بدا واضحاً بشكلٍ مؤلم أنني عاجزٌ عن ذلك. لم يكن باستطاعتك تحمل لمساتي. أمّا الآنَ، فيبدو لي أنّك لا تكتفين من العناق.

ثمّ أضاف بتجهّم: «من علّمك إذاً؟ لا شكّ في أنّك لم تتركي هذا الفضل لي؟».

أحسّت بوجهها يتوهّج بنار غضبٍ فجائي. كيف تخطر هذه الفكرة على باله، لا بل كيف ينبس بها؟ كانت شمس الصّباح على وشك أن تشقّ طريقها وسط الضّباب.. بدت أشجار الأوكاليبتس خارج البيت الصّيفيّ، وهي تتهادى برقة مع النّسيم الخفيف، وقد تألّقت أغصانها البيضاء الضبابية وأطياف أوراقها الفضيّة في ظلّ النور المنتشر. أما في الداخل، فكان الجو أكثر ظلمة، ووجه رومان كالح تغطيه الظلال.

هزّت قشعريرةٌ جسمها هزّاً. فسألها رومان بجفاف: «هل تشعرين بالبرد؟ أم أنّني لمست وتراً حساساً؟».

صاغت جملتها بحدّة: «ليس برداً بل غضباً. كيف يمكن أن تساورك هذه الأفكار عنّي بعد ما جرى بيننا؟ أنا لا أعاشر ما هبّ ودبّ من الرّجال! أنت الرّجل الوحيد الذي جمعني معه سريرٌ واحد!».

صحيحٌ أنّها لم تكن ترتدي إلاّ سروالاً قصيراً أزرق اللّون وبلوزةً مناسبةً له، لكنّ الصباح كان دافئاً. بل حاراً في الواقع. أحسّت بقطرةٍ من العرق ترشح من شفتها، وأدركت من حدّة فمه الفائق الجاذبية أنّ ردة فعلها العفوية الصادقة لم تقنعه.

إنّه يعتقد أنّ افتراضه هو الإجابة الصحيحة، وأنّها، منذ هجرته، تنتقل من علاقةٍ إلى أخرى. وهذا ما أشعل الغيرة في قلبه؟ رومان يغار؟! سحقت وميض الأمل بعزم وإرادة. فمن الخَطر فعلاً أن تعتقد أنّ زوجها يحبّها حقاً، لا سيّما أنّه قد يؤدّي بها إلى خيبة أملٍ لن تستطيع على الأرجح

تحمّلها.

ما كان منها إلاّ أن سألته بكدرٍ ويأس: «لمَ تسألني كلّ هذا؟ لمَ الآن؟».

حاولت أن تطفىء نار الغضب المحتدّ، وقد فهمت أخيراً الواقع المهين المرير الذي كان يقضّ مضجعه. هل أوشكا على بلوغ النّهاية؟ يبدو ذلك، فالواضح أنه لم يصدّقها حين قالت له إنها لم تبنِ علاقة مع أحد.

هي المرّة الأولى منذ لمّ شملهما ثانيةً التي لا يرتميان في أحضان بعضهما بعفويةٍ، فيتعانقان حتى تشرق الشّمس فوق البحر الضبابي، ثم يتبادلان الأدوار لإحضار الفطور إلى السرير. كان قد أيقظها هذا الصّباح بقبلةٍ طبعها على عجل، واقترح أن يتناولا القهوة في البيت الصيفيّ، لكن حتى ذلك لم يزعجها. ليس حتّى الآن. أتعب منها بهذه السرعة كما في الماضي؟ هل افتراض خيانتها هو الحجّة التي يبحث عنها؟.

أحاطت كاسي صدرها بذراعيها، وقد تسلّلت القشعريرة إلى داخلهاالآن. بدا لها أنّ كل شيءٍ يتداعى ويؤول إلى الدمار.

ـ بغضّ النظر عن ملاحظاتك المهينة في شأن علاقاتي الجنسية المتعدّدة، ظننت أننا..

صمتت قليلاً، قبل أن تهزّ كتفيها بيأسٍ وتردف:

ـ أنّنا قمنا بحلّ خلافاتنا.

ـ الجنسية؟ لا أظنّ ذلك.

كان قميصه الأبيض يلمع كلّما انحرف نور الشمس فجأةً. هزّ منكبيه العريضين لامبالاةً وتابع:

ـ أقرّ أنّني وجدت استجابتك الفجائية مذهلةً في البداية. وبما أنني رجلٌ كغيري من الرّجال، فقد تقبّلت هذا الكرم بصدرٍ رحب. لكن هذه هي القشرة الخارجية أليس كذلك؟ ما يهمّني هو ما يقع في طيّاتها.

رغبةٌ ذكورية! أهذا أسلوب رومان في تحذيرها أنّ الرغبة وحدها كانت وراء تلك الأسابيع الخمسة؟ حمدت الله بتعاسةٍ أنّها لم تترك نفسها أسيرة الأمل بأنّه يحبّها من جديد. لا، لم تفعل، ليس تماماً.

لم تكن تعرف ماذا يرغب في أن يسمع منها. لكنّه منحها على الأقل وقتاً صغيراً لاسترداد أنفاسها، فيما انحنى فوق صينية القهوة على الطاولة المنخفضة، ليسكب الشراب الساخن من الإبريق الفضي ويضيف السكّر إلى فنجانها.

أمّا هي، فضاعت في أفكارٍ هائجة، وباتت غير مستعدّةٍ لسؤاله التالي، لذا فغرت فاها صدمةً عندما سألها باتّزان:

ـ أخبريني، هل تزوجتني من أجل المال؟.

حين استطاعت أخيراً أن تتفوّه بالكلمات، سألته:

ـ ما الّذي أقحم هذه الفكرة إلى رأسك؟ هل بتّ منقّبةً عن الثروات، بالإضافة إلى كوني فاسقة؟!.

ـ لقد رُدّد ذلك على مسامعي قبل زواجنا.

نفثت كلماتها التالية بحدّة:

ـ من فعل ذلك؟ إحدى عمّتيك على الأرجح. فكلتاهما لم تحبّاني! أعلن وكأنّها لم تتكلّم قط:

ـ رفضت تصديق ذلك في ذلك الحين. فقد كنت رقيقةً وبريئة، لا بل إنّك لم تطلبي أيّ مصمّم أزياء أو جواهر نفيسة. كنت النّقيض التام لمخلوقات المجتمع الراقي اللّواتي كنّ يلتصقن بي. وقد عانيت مشقةً لأقنعك بشراء فستان الزفاف والجهاز المناسب. أتذكرين؟.

بالطبع تذكر! كان قد سدّد ديون أبيها التي لم يغطها مبيع البيت، فكرهت أن تثقل عليه بالأعباء الإضافية.

صحيحٌ أنّها و روي لم يملكا ثروةً كبيرة، لكنّ كان باستطاعتهما جمع مدّخراتهما. ولتمكّنت من تجهيز نفسها بثوبٍ لن تخجل عائلته الرفيعة

المقام من رؤيتها فيه. لكن، لا! حتى حجم الاستقلالية التي أرادت التّمتع به حُرّم عليها!.

عندئذٍ سألته بغضبٍ شديد: «ما الذي بدّل رأيك إذاً؟».

إن أراد نزاعاً، فسيحصل على واحد، حتّى وإن كانت مجرّد الفكرة تمزّق أضلعها.

ـ أخبرني متى سألتك مالاً مرةً؟ متى بدّلت رأيك؟.

ـ ليلة زفافنا بالإضافة إلى السنوات التالية.

أضاف بسطحية:

ـ لم تهتمي بي كزوجٍ قط، أو كأبٍ لأطفالك. كنت قد تحررتِ من الديون التي عجزت عن تسديدها، وسهرت على استقرار أخيك، وجعلته يتلقى راتباً جيّداً. ولم يمضِ وقتٌ طويلٌ حتّى هربت، وأطلعتني أنّك تطلبين الطلاق. عند ذلك، تساءلت إن كانت نيّتك منذ البداية هي الحصول على نفقةٍ شرعية مهمة لا غير.

ولوّح يديه بحركةٍ معبرة قبل أن يضيف: «وفيمَ عساني أفكّر غير ذلك؟ كان التّفسير المنطقي الوحيد».

سكت قليلاً، ثم أردف بجفاءٍ بثّ موجاتٍ من الألم في قلبها:

ـ وبالطّبع، السبب الوحيد لوجودك هنا الآن، وللسماح لي باستخدام جسدك هو المال... المال المسروق.

ذهلت وقد وجدته يظنّها مجرّد جشعةٍ، طامعةٍ بالمال. لكنّها أطبقت شفتيها الناعمتين، وكتمت الشتائم التي أرادت رميه بها. فهو يملك وجهة نظرٍ فعلاً.

لكن حان الوقت الآن ليسمع وجهة نظرها هي، هذا إن لم يتبق أي كلام آخر.

تكلّمت ببساطة: «لم أهتمّ بمالك قط. كنت شاكرةً حين عرضت تسديد الديون المتبقية، لا سيّما حين أكّدت على أن المبلغ تافه جداً

بالنسبة لثروتك. كان هذا يعني أنّ ما تبقى من الدائنين لم يكن مضطراً للمعاناة، وأنني وأخي لم نكن مضطرين للعيش في العوز ولممارسة أيّ عمل يسمح لنا بالوفاء بديوننا. لذا أظنّ أنّنني اخترت الطريق الأسهل».

وما لبثت أن شدّدت بثبات: «لكن... لو لم أكن مغرمةً بك إلى حدّ الجنون، لما فكّرت في الزواج بك. ولكنت عدت إلى إنكلترا مع روي ووجدنا عملاً».

رمقته بنظرةٍ شرسة. إن كان خائفاً من أن تطالبه بنصف أراضيه، فبمقدوره أن تخلّصه من هذا الخوف.

لم تعنِ له هذه الأسابيع القليلة المنصرمة شيئاً، باستثناء الإثارة الساحرة التي بدأت تشعره بالسأم على الأرجح. وإلاّ، لمَ يحاول جاهداً أن يخلق شجاراً، موجهاً إليها مثل هذا الإتّهام؟ كيف لها أن تتزوجه من أجل ماله؟.

ـ لا نية لي بالمطالبة ببيزيتا واحدة عند طلاقنا!.

ترى، لمَ تذكر الطلاق، وقد كانت في الأسابيع الماضية تتمنّى أن يدوم زواجهما؟ أنّت بصمتٍ. أحسّت بكتلةٍ من التعاسة تنعقد في حلقها، ثمّ ترمي بثقلها على معدتها. واجتاحها غثيانٌ.

ـ تملكين كلّ النية طبعاً!

ما كان ليرميها بهذه الاتهامات الخطيرة لو كان يريد لزواجهما أن يدوم.

فجأةً، تعثّرت قدمها. كان كل شيء ينحو منحىً سلبياً. حين جالا سوياً في الحديقة هذا الصباح، بدا لها أن السحر قد أضفى على المكان لمسةً خاصّة. أمّا الآن...

أحاطت يدٌ متسلطة بخصرها، فمنعتها عن التعثر وأجلستها إلى الكرسي المجاور له.

ـ أقتبس عنك قولك إنّك كنت «مغرمة» بي إلى حدّ الجنون حين

تزوّجنا، غير أنّني أعتقد أنّك تكذبين، لأنّني لم أرَ دليلاً على حبّك هذا.

كان هذا اتّهاماً لا لبس فيه، إلا أنّه قيل بأسلوبٍ ألطف.. ابتعدت أصابعه عن خصرها، ممّا عنى أنّها أصبحت حرّةً في الذّهاب، أو أنّها حرّة في الدفاع عن نفسها؟ أو أنّه لا يبالي؟.

قد تنهمر دموعها الآن في أيّ لحظةٍ، فتعرّض نفسها للذل. أحسّت بأحشائها ترتجف، وبالضّغط يتكدّس في حلقها وداخل مقلتيها. لكنّها لن تدع البكاء يشق طريقه إلى وجهها.

ـ رغم أنّك تعرف الحقيقة يا رومان، لكنّني سأنعش ذاكرتك.

اكتست الكلمات حدّةً أعظم مما نوت. فتعمدّت أن تأخذ نفساً بطيئاً وتليّن من نبرتها.

ـ حين تزوّجنا، كنت موجودةً في زمانٍ ليس بزماني، امرأةً من القرن التاسع عشر تعيش في القرن العشرين. ربّاني والدٌ متسلط تربيةً محافظة جدّاً، فاقتصرت تجربتي في الرّجال عليه وعلى روي وعلى أخي سيندي طبعاً. كان أبي يظنّ أن النّساء لم يبصرن النّور إلاّ لمنفعة الذكور.

ارتشفت القهوة الحارّة وأعادت الفنجان بوقعٍ هدّد بتهشيم صحنه.

ـ حين غادرت المدرسة في الثامنة عشر من عمري، لجأ إلى طبعه القويّ، وإلى قدرٍ كبير من الابتزاز العاطفي كي يقنعني أنّ واجبي هو ملازمة البيت والإنابة عن مدبرة المنزل التي وظفناها بدوام جزئي بعد وفاة أمّي. لذا، حين التقيتك وأغرمت بك، كانت ثقتي بنفسي في أدنى مستوياتها.. لقد اجتاحني حبّك بشدّة، لكنّني كنت أعلم أنّك بعيد المنال. فقد تميّزت بالثراء والثقافة الرفيعة وقدرٍ كبير من الثقة بالنفس، أي كلّ ما كنت أفتقر إليه.

لكنّها تزوّجته على أيّ حال، لأنّ حبّه غمر جوارحها إلى حدّ الألم. علمت أنّه لا يحبّها، وأنه يكنّ لها فقط عاطفةً مميّزة. ورغم ذلك، فضّلت ذلك على أن تكون معشوقة أيّ رجلٍ آخر.

ـ إذاً كنتُ محطّ افتتانٍ متأخر نسبياً لمراهقة؟ فما الذي جرى؟ قمت بما في وسعي لأؤمّن راحتك وأحرّرك من الهموم. ألم أسهّل لك دورك ونمط حياتك الجديدين؟.

أجابت بسخرية: «تسهّل؟ أتعني تركي مع أمّك وعمّتيك فيما تسافر إلى إنكلترا؟»...

قاطعها رومان بفظاظة:

ـ كان هذا أفضل للجميع. فقد اضطررت لحلّ الفوضى المالية التي تسبّب بها أبوك، والتأكّد من بيع منزل العائلة، بالإضافة إلى التعامل مع المحامين والدائنين. كل ذلك كان ليزعجك من غير داعٍ. انصبّ همي على أن تزيدي أواصر العلاقة مع عائلتي أو عائلتك الجديدة، فتتأقلمي مع الجو، وتباشري بالتحضيرات لزواجنا. لذا، أرجو منك ألاّ تتّهميني بارتكاب الذنب.

هزأت منه: «هل أنت جادّ؟ لقد تصرّفت كما كان والدي ليتصرّف: بغطرسة! ولا تلبس قناع من أُهين للتّو! صحيح أنّني كنت عاجزة عن التّعبير عن رأيي قبل ثلاث سنوات، ولكنني قادرةٌ على ذلك اليوم! لقد قرّرت ما هو الأفضل لي من غير أن تسألني عمّا أريد أنا. كان الجميع يتحكّم بي ببراعةٍ حتى كدت لا أفكر في المعارضة. كنت أنفّذ ما كان يطلب مني، وأعاني جرّاء ذلك. حين تزوّجنا أخيراً، كنت قد تعرّضت لغسل دماغ كامل».

شدّتْ على أصابعها، وقد توتّر صوتها لذكرى الذل الذي عانته، وتابعت:

ـ كنت غريبة، بلا حسبٍ ولا نسبٍ، بلا مال وفير وجمالٍ باهر. أما أنت، فكنت طبعاً زير نساء من الطراز الأوّل! كنت صعباً جداً، ولم تتزوّجني إلاّ لتغيظ عائلتك. كنت فائق الإثارة والخبرة، ولا شكّ أنك كنت ستملني بسرعة... وما إن كنت لأمنحك طفلاً حتى تسعى إلى تعليق

خدماتي وحجبي بعيداً.

تلا انفعالها المتوتّر النابع من القلب ثباتٌ عميق من ناحيته. بدت عيناه سوداوين وباردتين برودا فاتراً. أما صوته، فأتى خفيضاً خطيراً.

ـ من قال لك هذه الأشياء؟.

ـ هل يهمّ ذلك الآن؟.

شعرت فجأةً بالفراغ، وبالياس وكأنّ نوراً انطفأ في داخلها. واستعادت لحظات التّقلقل اليائسة تلك. وتذكّرت كيف تصاعدت حدّة هذه الأحاسيس في نفسها، مع نيّة إلغاء الزفاف طبعاً. وأدركت كم كانا يعيشان في عالمين مختلفين ثقافةً ومعايير اجتماعيةً. أمّا الأسابيع القليلة الفائتة... فما هي إلا خيال... حلم أحمق.

ـ إنّه يهمّ. أخبريني.

أدركت بانهزام أنّه قويّ كعادته. فلتخبره! إنّ نساء عائلته لم تكسبن وفاءها، كما إنّه لن يصدّقها على الأرجح في مطلق الأحوال. لقد سبق أن اتّهمها بالزواج به طمعاً بماله كما اتهمها الآن بإقامتها لعدة علاقات. من هنا، فإنّ نعتها بالكذب لن يشكل فرقاً كبيراً.

قالت ببساطة: «عمّتاك... أما أمك، فينبغي أن أعترف بأنّها لم تشارك في تلك النقاشات العائلية الحميمة، بل أثبتت وجهة نظرها بالمحافظة على أدبٍ فاتر».

ـ يا إلهي!.

سدّد نظرةً إلى قدمه، وقد تجمّدت كتفاه العريضتان، وأظهرت أشعة الشمس قسماته الحادة بوضوح. وما لبث أن زمجر:

ـ كنت خياري أنا. كيف تجرّأتا؟.

ارتعشت كاسي. فقد كان غضب رومان المتفجّر منظراً لا يفوّت، من اتّقاد عينيه الكثيبتين، إلى تقبّض يديه المتوحشتين.

لكنّه على الأقل لم ينعتها الآن بالكذب كما لم يتّهمها بالتهجم على

عائلته الرفيعة المقام. زرعت هذه الفكرة جذورها في قلبها، فأضفت عليها شيئاً من الدّفء، ثمّ أينعت بنعومةٍ، بينما قدّم إليها يده وقال لها برقّةٍ: «تعالي».

وذهبت إليه. أليس هذه هي حالها دائماً؟ احتضنتها ذراعاه، فأرخت رأسها على كتفه، وقلبها يخفق بالحبّ الّذي لم تعد تستطيع كتمانه. أمّا هو فتمتم:

ـ بدأت أفهم قليلاً. حين أقبلت ليلة زفافنا، كانت ثقتك بنفسك قد سحقت كلياً. كنت تواجهين عريساً خبيراً يفترض به أن يحجبك ويعلّقك عن خدماتك ما إن تتمّي واجبك وتؤمني وريثاً للأراضي. لا عجب أنّك تسمّرت في مكانك. ومن الطّبيعي أنّك لم ترغبي في مشاركتي الفراش، لأنّه قد يؤدّي إلى حملك، فتقضين حينها بقية حياتك متوارية، تلازمك النّسوة اللواتي لم يرحبن بك منذ البداية.

ساورت كاسي الأفكار ولاحت ابتسامةٌ باهتة على وجهها. بدا وكأنّه معتدٌّ بنفسه. كان يربت على ظهرها وكأنّها حيوانٌ أليف بحاجةٍ إلى الأمان. فلتنسَ اتّهاماته البغيضة كلّها. فالتواجد بين ذراعيه له تأثيره الساحر نفسه. وهي عاجزةٌ عن مكافحة هذا الشعور الدائم في الحاجة إليه.

وبّخها بلطفٍ: «كان يجدر بك أن تخبريني بكلّ ذلك حينها. لأمكنني عند ذلك أن أخمد مخاوفك».

ربت مرة أخرى عليها، وما لبثت يداه أن مرّتا على كتفيها حتى أبعدتاها عنه.

وتابع: «لكن لطالما بدا لي أنّك معقودة اللسان أثناء وجودي، رغم أنّك تثرثرين لساعاتٍ مع سيندي وأخيها. من المؤسف أنّك ترهبينني بهذا القدر. كان بمقدور كلمات شرح بسيطة أن تشكّل كلّ الفرق».

كان يتكلّم كحاكم اقطاعيٍّ إسبانيّ مقلق. بدا متكبراً متعالياً. وعاد يعاملها كطفلةٍ تافهةٍ تفتقر إلى أيّ ذرةٍ من العقلانية.. منذ زمنٍ، كانت

تستجيب بخنوعٍ لكلّ ما يقوله. فقد تربّت على الاعتقاد بأنّ الرجال كائناتٌ سامية تدرك الأفضل دائماً. أمّا اليوم. فها هي ترجع رأسها وتقول:

ـ سواء تعلّقت المسألة بالحمل أم لا، فقد كنت محجوبةً فعلياً، أليس كذلك؟

منحته ابتسامةً مشعةً. ثمّ راحت تنقّب في الماضي واستطاعت أن تقلّب في تجاربها الفاشلة الماضية. ومن يدري؟ لعلّها تقنعه أنّها ليست هذه المرأة المشوشة التي يظنّها.

ـ ما كنت لأتزوجك لو ظننت أنّك ستحبسني في خزانة وتقفل عليّ ما إن أنجب وريثاً. كنت أعرف أنّك لست بهذه القسوة...

وضعت يديها فوق ظهره، وهي تتحسّس حرارة جسده وخفقات قلبه الثقيلة خلف الحرير الأبيض الناعم.

أرادت أن تقترب منه، أن تقترب أكثر، لكن عليها الانتظار. فهذه المسافة وحدها تبعث فيها الارتجاف وتزيد من نبضات قلبها. فتابعت وفرائصها ترتعد والنفس منها يخرج متقداً مضطرباً:

ـ قيل لي إنّك مثيرٌ للغاية وخبير. كم عانت عمّتاك وهما تذكران لي علاقاتك المتعدّدة مع عارضات أزياء وراقصات، باهرات الجمال! لم تكن ستتزوّج إحداهنّ طبعاً، ولكن لا غنى عنهنّ بالنسبة لرجلٍ شاب.

دنت منه أكثر فأكثر. كم كانت تتوق إليه. لا شكّ في أنّه يدرك ذلك الآن، لا شك في أنّه يتفهّم، أليس كذلك؟.

أحسّت باضطرابٍ يعتري تنفسه قبل أن يبتعد عنها فجأةً. ثمّ أولاها ظهراً صلباً وعقد حاجبيه قلقاً وهي تقول:

ـ رومان، كنت عذراء. وما زاد الطين بلّة أنّني لم أعرف رفيقاً بكلّ معنى الكلمة. خشيت أن أخيّب أملك. خيّم الخوف على ذهني حتى عجزت عن طرده. هل تفهم؟ رحت أفكّر أنك ستقارنني بالأخريات... بالنساء الجميلات والخبيرات اللواتي يعرفن كيف يرضين رجلاً.

لمَ لا يلتفت وينظر إليها؟ لماذا؟.

ـ في الليلة الأولى، جمدّ الخوف من الفشل أوصالي. علمت... علمت...

كانت قد بدأت تتلعثم. فمتانة جسده ورأسه الذي أماله بطريقةٍ غريبة... كل ذلك عقد لسانها كما في الأيام الماضية.

استجمعت أنفاسها وتابعت بثباتٍ أكبر: «علمت أنّك لم تكن تحبّني، وأنّك لم تخترني إلاّ لأنّني لا ألّح عليك بمطالب تزعجك. لكنّك كنت تكنّ لي عاطفةً فظننت أن هذا يكفيني!».

وما لبثت أن أكدّت بحزم: «لكنّ ذلك لم يكن صحيحاً. لو كنت تحبّني، لتمكّنت من الإفصاح عن مشاعري. لو كنت تحبّني، لما قارنتني بالأخريات، ولعلّمتني كيف أستجيب لك، ولأزلت مخاوفي. غير أنني علمت أنّك لم تكن تحبّني، فبات بي من العار والخجل ما منعني من الشرح. اكتفيت بإبعادك عنّي كلّما دنوت. لم يكن باستطاعتي تقبّل المزيد من الذل».

ران صمت قطعه هديل حمامة ناعم، وحفيف النّسيم بين الأشجار. أحست بتوترٍ في حلقها. أكان يفكّر في كلماتها، ويبحث عن موطن الصدق فيها؟.

توسلت إليه بصوتٍ أجش: «قل شيئاً».

عندئذٍ التفت. فإذا بالتّعبير في عينيه يحبس منها الأنفاس مجدّداً. ماذا قرأت؟ الندم؟ الحزن؟ كيف تتأكّد من كلام عينيه؟.

بعد قليلٍ، قال: «إذن ينبغي أن أتحمّل الجزء الأكبر من اللّوم».

لم تسمعه يتكلّم بهذه اللكنة الإسبانية قط. سحب يديه من جيبي بذلة التشينو الرمادية التي كان يلبسها، ثمّ حانت منه التفاتةٌ إلى ساعته. أخيراً تكلّم بهدوء وعيناه كتابٌ مقفل لا يفصح عن شيء:

ـ حين تركتني، دفعتني غريزتي أولاً للذهاب إلى انكلترا وإرغامك

على العودة.

كان يتكلّم ببطء وقد ازدادت لكنته المثيرة وضوحاً، وكأنّه كان ينتقي كلماته بحذر. لم تستطع كاسي أن تصدّق أن السّعادة لم تساوره لرؤية هذا الجانب من زوجته التعسة.

ـ لمَ أردتَ أن تفعل ذلك؟.

حين لمس عدم التصديق في صوتها، أمال وجهه الأسمر الوسيم، وردّ:

ـ لمَ؟ لأنّك كنت ملكي.

و رومان فرناندیز لا يتنازل عن ممتلكاته بسهولة، حتّى وإن كانت تافهةً بلا قيمة!.

ـ إذاً لمَ لم تلحق بي؟.

هل كانت ستعود معه إلى إسبانيا؟ ربّما. ففي الأسابيع القليلة التي تلت عودتها إلى إنكلترا، كانت في حالةٍ يرثى لها. فقد دمّرت زواجها قبل أن يبدأ حتى. كم كرهت نفسها! لو أنّه أقبل إليها وطالب بعودتها، لرحلت معه آملةً أن تتحسّن أوضاعهما بمعجزةٍ ما.

لكنّه لم يأتِ، لا بل لم يقدم على أيّ محاولةٍ للاتّصال بها. فعلمت أنّها باتت وحدها وأنّ عليها المباشرة ببناء حياتها.

ـ غيّرت رأيي.

رمق ساعته بنظرةٍ متململةٍ أخرى. بدا كأنّه يتحاشى عينيها، كأنه يتمنّى لو يضاعف المسافة بينهما من جديد.

ـ كنت... كيف أصوغها بطريقة لطيفة؟ غير ناضجة بتاتاً. لم تتصرّفي كمراهقةٍ مقهقهة، فهذا ما كان ليجذبني إليك أبداً.. ثم أصبحت منغلقة على نفسك. لذا ارتأيت أنّ تحمّلك المسؤولية وحدك لمدّة، من دون أبٍ أو زوج يملي عليك تصرفاتك، كفيلٌ بأن يقودك إلى طريق النّضوج.

إن كانت عيناه قد اكتستا قسوةً فجأةً، فقد خالط صوته خشونةٌ أكبر:

ـ وكنت محقاً. فقد نضجت إلى حدٍّ بعيد يا زوجتي. وبالتأكيد، لم تعودي تخشين من العلاقة الجنسية. لديّ دليل كبير على ذلك. ما لا أعرفه، أو ما أرغب في معرفته فهو من علّمك بهذا الجهد والعناية.

* * *

www.elromancia.com

٩ ـ يومان من دونه

ـ رومان!.

لكنّه كان قد مضى بعيداً على عجلةٍ من أمره، متقدّماً بخطواتٍ واسعة على طول الطريق المؤدية إلى المنزل. كانت قدماه تسحقان أوراق الخزامى المحاذية، فتطلقان العبير الطيّب في الأجواء. لو أنّه سمع صرختها المكروبة فعلاً، فقد بدا أنه لم يبالِ على الإطلاق.

ألقت كاسي نظرةً مضطربة على صينيّة القهوة، وقرّرت أن تعيدها إلى المطبخ في وقتٍ لاحق. كان عليها أن تلجأ إلى محاولةٍ أخرى، علّها تقنعه أنّها لم تخنه قط خلال انفصالهما، رغم أنّ ذلك بدا ضرباً من اليأس. ينبغي أن يصدّق أنّه الرجل الوحيد الذي اهتزّت مشاعرها له، أو حتى رغبت فيه.

لحقت به فيما هو يلج فناء المدخل تحت القنطرة. كان قلبها يخفق بشدّة، فأيقنت أنّ وجهها قد استحال احمر..

ـ رومان... انتظر!.

وإذا به يكشف عن وجهٍ مناقضٍ تماماً، يحمل الهدوء والاتّزان. لم تره بهذه الرزانة قط. كان قد رفع حاجباً داكناً واحداً في تساؤلٍ صامت، فيما أسدل نظراته على تقاسيمها المضطربة.

ـ أريد أن أكلّمك... وأريد منك أن تصغي إليّ.

أحسّت بلسانها ثقيلاً. ترى، هل تنجح يوماً في إقناعه بأنّها لم تتلقَّ دروساً في إرضاء رجلٍ على يد سلسلةٍ من الخبراء؟ من الواضح أنّ الموضوع كان يقضّ مضجعه على مدى الأسابيع الخمسة الماضية حتّى عجز عن صرفه عن تفكيره.

ـ لقد انتهينا من الكلام يا عزيزتي.

كانت نبرته حاسمة، فيها من البرود ما مزّق أوصالها، خاصة وأنّ عينيه الدخانيتين الجميلتين قد خلتا من أيّ تعبير.

ـ لكنّنا فجّرنا ما كان مكبوتاً. وكان ذلك ضرورياً كما تعلمين. وقد كانت الأسابيع القليلة الماضية...

هزّ كتفيه بلامبالاة، قبل أن يضيف: «ماذا أقول؟ حلماً. لكنّ المرء يستيقظ حتماً ويواجه الحقيقة. كان علينا أن نكتشف لمَ كان زواجنا على هذا...».

سكت قليلاً وكأنّه يبحث عن كلمةٍ لا تحمل في طيّاتها ألماً كبيراً، ثم أردف: «الإزعاج. أمّا الآن...».

عاد يرمق ساعته بنظرةٍ غاضبة ملؤها الإحباط، ثم قال:

ـ يتوقعون وصولي إلى سيڤيل من أجل اجتماع عملٍ في وقتٍ لاحق من هذا الصباح. سأغيب ليومين. سنواصل حديثنا عند عودتي. لن نبحث في الماضي، بل في المستقبل.

أرادت أن تتوسّل إليه صارخة: «خذني معك!».

لكنّها لم تفعل. أحسّت وكأنّ كتلةً قرميدية ضخمة هوت على رأسها. كان يتكلّم وكأنّه ينوي كلّ النية منحها الطلاق الذي طلبته قبل سنةٍ. ترى، هل يعيد التاريخ نفسه؟ ها هي رحلات عمله تنزعه منها لفتراتٍ قد تطول أكثر فأكثر.. ها هو يخلّفها وراءه كالعادة.

غير أنّها ما لبثت أن ذكّرت نفسها بتهوّر أنّ الأمر تغيّر هذه المرّة. فالنّجاح قد كلّل لقاءهما هذه المرّة حتّى أصبحا أشبه بجزءين لا ينفصلان.

أفيذهب هذا في النهاية إشلاء الرياح؟.

ما كان منها إلا أن ارتمت على مقعدٍ حجري في الفناء، فيما ابتلعه سكون المنزل الهادىء. راحت تصغي إلى خرير النافورة الموسيقيّ، وأريج الدفلى العطر يتغلغل في أنفاسها، وهي تحاول جاهدة أن تستعيد رباطة جأشها. فآخر ما تتمنّاه حالياً هو الطّلاق، فهي تحبّه، تحبّه كثيراً.

لقد طرح أسئلةً أجابت عنها بمنتهى الصدق، فأشبع فضوله وبات الآن يدرك لماذا اضطرت إلى هجره، ولمَ آل زواجهما إلى هذا الفشل الذريع.

لكن ما لم يخطر بباله قطّ أنّ استنتاجاته كانت، بكلّ بساطة، خاليةً من الصحة. انتفض الماضي من رماده، ولم تُلقَ الأخطاء في مهبّ النّسيان، لا بل تضاعفت بسوء تفاهم جديدٍ لا يقل عنها تدميراً: باتت في نظره امرأة بَنَت علاقاتٍ متعدّدة مع غيره من الرّجال. خيّل إليها أن سلوكه برمته مجرّد إصرار على متابعة ما قد باشرت به: نهاية زواجهما.

اجتاحها ألمٌ نفسي خالطه من الحدّة ما دفعها إلى الاعتقاد أنّها لن تتحمل الفكرة أبداً، لذا، حين وقف أمامها بعد دقائق، نظرت إليه وقد انحسرت الشرارة في عينيها خلف ستارٍ ثقيل من التعاسة.

بدا هادئاً وأنيقاً. تغلغل فيها عبق العطر الذي لطالما استخدمه، وهو عطر سيعيش في ذاكرتها إلى الأبد. كان يحمل مفاتيح سيارته في يدٍ، وحقيبة صغيرة في اليد الأخرى.

تكلّم برزانة: «لقد استدعيت مانويل وتيريزا. من المفترض أن يصلا خلال ساعةٍ. فبعد عنايتنا التي أصفها بأقلّ من صادقة، يحتاج المنزل والحديقة إلى بعض الإشراف.

كان يشرح لها ذلك بفتور بعث فيها الارتعاش. إذاً لقد انتهى شهر عسلهما الثاني فعلاً. كان قلبها يبثّ فيها نبضات من الألم، فيما عقلها انشطر انشطاراً وقد توزّعت أشلاؤه هنا وهناك.. ما فائدة أن تسأله الإصغاء إليها وهي على تلك الحالة؟ لن يرحب طبعاً باحتجاجاتها البريئة

الأقرب إلى الهستيريا، أو بتوسلاتها وبكائها.

هذا إلى أنّها لا تريد أن تتشبه بحطام امرأةٍ تهذر هذراً. إنّها بحاجةٍ إلى بعض الوقت كي تستردّ أنفاسها، وتستعيد زمام أمرها، فتراجع ما قد حدث هذا الصّباح.. وغيابه سيوفّر لها ذلك.. بادلته نظرته بما استطاعت من الهدوء وقالت: «حسناً، أراك خلال يومين. اعتنِ بنفسك».

ثمّ هرعت بعيداً، قبل أن يلمح العبرات المترقرقة في عينيها.

بعد عشر دقائق، كانت قد ارتدت ثوباً قطنياً خفيفاً أصفر اللّون، وخفّين مسطحين مريحين، كما اعتمرت قبّعةً من القش تغطي بها شعرها المعقوص إلى الخلف. لا يمكن أن تكون هنا حين تعود مدبرة المنزل مع البستاني للمباشرة بأعمالهما.

يجب أن تنفرد بنفسها، بعيداً عن البيت الذي تقبع في أرجائه الذكريات. يجب أن تفكّر، أن تستجمع رباطة جأشها، فتواجه انهيار زواجهما الأخير أو ما يشبه ذلك. يجب أن تكتشف أيضاً إن كان ما ولد من إحساسها حقيقياً فعلاً...

سارت على طول الطريق الضيّق.. وأطلقت نفساً مسترخياً قصيراً وكأنّها أكثر تحكّماً بمشاعرها، ولو بقدرٍ صغير. تذكّرت تيريزا، تلك المرأة القوية المتينة، الأشبه بضابطٍ صارم يحكم جيشاً من الخدم بقضيبٍ من الحديد، كما تذكرت كيف عاملت العروس الجديدة غير المناسبة باشمئزاز متكبّر واضح.

قرّرت كاسي أنّها لا تحتاج إلى التّعامل مع هذه المرأة حالياً.. توجّهت أولاً إلى الصيدلي في الميدان الرئيسي. رمت العلبة داخل حقيبة القش المتناسقة مع قبّعتها، ثمّ خرجت من المتجر في وضح النّهار المشمس. إلا أنّها أحسّت رغم الحرّ الطاغي برجفةٍ خفيفةٍ.

قريباً ستعرف، بطريقةٍ أو بأخرى، أهي حاملٌ بطفل رومان؟ أم أنّ دورتها عادت تضطرب لأنّها نسيت تناول الحبة في تلك اللّيلة المشؤومة

التي لا تنسى؟.

لكنها لن تصب تفكيرها على ذلك الآن، فرأسها يضجّ بألف فكرةٍ وفكرة. وهي لم تخرج إلا لتروّح عن نفسها، لا لتزيد همومها همّاً.

رغم ذلك، ظلّت تحسّ بقشعريرةٍ في داخلها، فيما هي تتوجّه نحو أحد المقاهي على الرصيف وتنهالك إلى طاولةٍ في ظلّ مظلةٍ كبيرة. طلبت عصير برتقال طازجاً مع كثيرٍ من الثلج، ثمّ حاولت أن تصفّي ذهنها وهي تشاهد المارّة في تلك البلدة الإسبانية القديمة.

لكنّ ذلك لم يفلح. فذهنها يصرخ بفكرةٍ واحدة؛ طفل رومان! كم ستحبّ الفكرة!.

حين عادت أدراجها إلى البيت الحجري القديم الذي يسيطر على الشارع الضيق بأكمله، كان الوقت قد قارب الغروب. كانت بعض خصلات شعرها المعقوص قد تحرّرت من أسرها وانسابت على كتفيها وهي تتطاير مع الريح البحرية التي خطفت قبّعتها فيما كانت تتمشى على طول الشاطىء الرملي. كانت تشعر بالحر والرطوبة وبالألم في قدميها.

لكنّ الأمر كان يستحقّ كل ذلك. فقد خيّل إليها أنّ ذهنها يصفو تدريجياً، وأنّ الأمل أكبر بكثير من بداية النهار. كان أملاً كافياً لتحيي تيريزا بابتسامةٍ دالّةٍ على الثقة، بينما هي تلج الرواق الرخامي الفسيح حيث تنتظرها مدبرة المنزل.

ـ مساء الخير يا تيريزا. أرجو أن تكوني قد رتّبت أمورك ثانيةً هنا مع زوجك. بات عدد الخدم اليوم ضئيلاً، بعدما كان جيشاً بأكمله يوماً.

ـ سيّدتي.

كان وزن مدبرة المنزل قد زاد منذ رأتها كاسي للمرّة الأخيرة، فيما ملامحها، كما عهدتها، تنضح باستنكارٍ.

ـ أترغبين في تناول العشاء؟.

سمحت كاسي لنفسها بابتسامةٍ ساخرةٍ خفيفة ردّاً على النبرة

المتكلفة. قبل ثلاث سنواتٍ، كانت تهزّ رأسها وتهرع بعيداً، غير راغبةٍ في التسبب بمشكلةٍ. أمّا الآن، فأجابت بسرور:

ـ أرجو منك أنّ تحضّري عشاءً خفيفاً في البهو الصغير خلال ساعة. سأستحمّ وأغيّر ثيابي.

... بالإضافة إلى القيام بذلك الاختبار. كان عليها أن تعلم علم اليقين إن كان ما تتمنّاه من كلّ قلبها صحيحاً أم مجرّد ضربٍ من ضروب الخيال.

ـ حاضر يا سيّدتي. خلال ساعة.

هل لمحت نظرةً من الموافقة المتذمرة في عينيّ العجوز السوداوين الصغيرتين؟ لم تستطع كاسي أن تجزم ذلك، حتّى أضافت مدبرة المنزل بمقدارٍ بسيط من الازدراء:

ـ مرحباً بك في منزلك. لقد مضى وقتٌ طويل.

ثم ابتعدت.

كتمت كاسي صيحةً المفاجأة السارة وصعدت السلالم الطويلة على عجلةٍ. سيكون كلّ شيء على ما يرام... لا مفرّ من ذلك! فلا شكّ في أنّ ترحيب تيريزا بها بشير خير. أليس كذلك؟.

لكنّ هذا مجرّد تفصيلٍ صغير. ما يهمّ فعلاً هو قدرتها في السيطرة على أعصابها، أثناء حديثها مع رومان، بهدوءٍ وعقلانية.

لقد ذكر أنّه شعر بالانجذاب إليها وأنّه لا يرغب في أن تهجره. ورغم ذلك، فقد تركها ترحل من أجل سلامتها الخاصة، وسمح للوقت أن يمضي حتى تنضج وتتحمّل مسؤوليتها بنفسها. كما أنّ غضبه بدا واضحاً حين اعترفت له أن عمّتيه سرقتا ما بقي في ذاتها من ثقةٍ بالنفس.

عند عودته سيتحدّثان ثانيةً. لقد وعدها بذلك. وعدها أن يفتحا صفحة المستقبل. أيكون مستقبلهما معاً؟ لقد عالجا مسألة الماضي وانتهيا من هذه الخطوة الأساسية، لكن كيف تتركه أسير اعتقاده الخاطىء هذا؟.

ستحاول أن تعيد الأمور إلى نصابها. لا بل ستصمّم على ذلك بكل ما أوتيت به من عزم.

ما إن فكّرتْ في ذلك حتى اطمأنت وأطلقت تنهيدةً حالمةً راضية. ستتقدّم إليه مباشرةً وتسأله إن كان مستعدّاً لمنح زواجهما فرصةً ثانية.

إنها تريد فقط أن يبقى رباط الزوجية جامعهما. فهي تحتاج إليه.. لكأن حياتها بأكملها تعتمد على هذه النقطة.

بعد ساعةٍ، نزلت السلالم وهي تشعر أن قدميها تطيران في الهواء. فهي تحمل طفل رومان في أحشائها. وقد انفرجت أساريرها بنعمةٍ لم تذق حلاوتها من قبل.

اليوم! إن وفى رومان بوعده، فسيعود اليوم. في وقتٍ ما من هذا النهار.

راحت كاسي تجوب غرفة نومها بلا هوادة، وفي رأسها يضطرم مزيجٌ من الحماس والترقب، مما حال بينها وبين أيّ محاولةٍ للاسترخاء. وكان النهار ما زال في منتصفه، مما يعني أنّ ساعاتٍ قد تمضي قبل عودته.

كم تتوق عيناها إلى رؤيته ثانيةً! كم تنادي يداها أحضانه.. لمساته! ليتها تبقيه منها قريباً.

مضت ساعاتٌ من الترقب والانتظار، الواحدة تلو الأخرى. ترى، هل تنجح في إقناعه أنّ علاقاتها المفترضة من نسج خياله فقط؟ هل يفكّر حينها في المضي بزواجهما نحو المستقبل؟.

الجوّ كان حارّاً للغاية. ولكن مانويل الذي نزلت تساعده في الحديقة هذا الصّباح قال إنه هناك عاصفة.. في الواقع، كانت على استعدادٍ بالقيام بأيّ شيء في سبيل تمضية الوقت بانتظار عودة رومان. غير أنّها شعرت أنّ الحرارة تصيبها بالدوار، من دون ذكر عجزها عن النوم وتناول الطعام. فقد تلاشت شهيتها إلى الأكل تحت وطأة مشاعرها المتأججة.

كانت قد أخذت حمّامين منعشين، ثم ارتدت قميصاً أبيض خفيفاً مع

بنطالٍ مناسب. ورغم ذلك بقيت الحرارة الخانقة تقبض صدرها.

من الضروري أن تغيّر ملابسها قريباً. فمن يدري؟ قد يعود بحلول الغداء. أرادت أن تكون بكامل استعداداتها، فتنتظره وهي تبدو مشرقةً متألقة. لكن، ماذا عساها ترتدي؟.

مشت حافيةً حتى الخزانة الضّخمة، ومدّت يدها حتى أمسكت بثوب رقيقٍ ملوّن، تتراوح ألوانه بين الأزرق والأخضر الناعم. كان الارتجاف قد أخذ بيديها كل مأخذ.

ـ كاس.

علا صوته في خضمّ الصمت الثقيل الذي اكتنف الغرفة الشديدة الرطوبة، فأجفلت وما كان منها إلاّ أن استدارت تواجهه، وقد انساب الفستان الرقيق من بين أناملها، حتّى حطّ عند قدميها. لم تستطع أن تنبس بكلمةٍ، حتّى وإن كانت حياتها على المحك. أمّا قلبها، فحدّث ولا حرج عن نبضاته المتسارعة التي بعثت الحذر في جوانب حلقها.. لقد وصل! وها الوقت قد حان لتنفّذ ما وعدت به نفسها. عليها أن تفصح عن كلّ مكنوناتها وتخبره الحقيقة. فلتخبره أنّها تحبّه وتريد قضاء بقية عمرها معه!.

لكنّها رغم ذلك، لن تخبره عن الطفل. ليس بعد، وإلاّ بدا ذلك أشبه بابتزازٍ عاطفي. عليه أن يوافق على استمرار زواجهما، من دون موانع أو قيود، لأنّ هذا مراده لا بسبب خضوعه لواجبٍ لا مفرّ منه.

بلّلت شفتيها الجافتين بتردّد وحاولت أن تبلع ريقها. لكن، الشلل كان مسيطراً على حنجرتها.

حين تتمكّن من الكلام بثبات، ستعرف إن كان يريدها أم لا، إلى الأبد. أخذ رأسها يدور بها وهي تتأمله بتوقٍ شديد. فليذهب الأبد أدراج الرياح.

ففي الوقت الحالي، استطاعت أن تتكهن أنّه يريدها توّاً، ولو لساعةٍ

قصيرة من النشوة الطائشة.

أغلق الباب وراءه وتقدّم لبضع خطواتٍ في الغرفة. بدا تعباً. كان الإجهاد قد زاد ملامحه قسوةً، والهالات السود قد ظهرت حول عينيه. إلاّ أنّ ذلك لم يقلّل من نظراته البطيئة المضطربة التي راحتا تتأمّلان جسدها.

أحسّت بقلبها يخفق وبمعدتها تنخبّط، فرفعت يديها نحوه بتوسّلٍ غريزيّ صامت. كان قد خلع سترته ونزع ربطة عنقه، ثمّ رماهما أرضاً، بينما عيناه لا تفارقانها، وقد علت حمرةٌ خفيفة خدّيه القاسيين.

ارتفعت نظراته نحوها رويداً رويداً حتّى استقرّت في عينيها. أحسّت بنفسها تصرخ تائقةً، تصرخ إليه. أما قلبها، فكان يترنح.. كان يريدها أيضاً.. والآن! علمت أنّه يريدها. وهكذا تلاشى الخطاب الصادق الصغير الذي ردّدته في رأسها مراراً وتكراراً، وذاب في موجةٍ من الحرارة المتّقدة والرغبة المتبادلة.

هرعت نحوه وقد أفلت منها أنينٌ صغير، ثمّ مدّت إليه ذراعيها. لم تكن الكلمات بضرورية. فقد انبثقت لغة العواطف التي أصبحا متمرسين فيها، معاً.

* * *

١٠ ـ أنت حرّة

بدا في أعماق عينيه الفضيتين غضبٌ دفين. أما هي فكان قلبها يخفق بانفعالٍ شديد، وذراعاها كان تحيطان بعنقه بدافعٍ غريزي.

في فؤادها كلماتٌ ينبغي أن تفصح له عنها، بالإضافة إلى السؤال المعضلة الذي يجب طرحه. لكن، ليس الآن ليس بعد. إنّها تحتاج إلى هذا... تحتاج إلى أن يغمرها بقربه الشديد منها.

في تلك اللحظة، كانت عيناه مغمضتين وفمه مضغوطاً ضغطاً. انسابت يدا كاسي على طول عنقه، ثمّ راحتا تتحسّسان منكبيه العريضين المتوترتين. ورغم أنّه لم يقدم على أيّ خطوةٍ ليحتضنها، إلاّ أنّها علمت أنّه كان يرغب في ذلك، كما أدركت أنّ قوّة حبّها ستهدّ مقاومته.

كانت تشعر بنبضات قلبه السريعة، وباضطرابه. فكفاها ذلك لتكتشف كلّ ما تحتاجه.

قالت بصوتٍ مثقلٍ بالحنين: «اشتقت إليك».

كانت تعلم أنّه يريدها. لمَ لا يحتضنها إذاً؟ لم يتراجع وينكر حبّها المؤكّد؟.

فكّت أزرار قميصه وقلبها يكاد يتوقّف عن الخفقان:

ـ هذا ما يبدو.

ظهر صوته حافلاً بالشجاعة، وكان قد فتح عينيه أخيراً ليطعنها بكلماتٍ حادّة:

ـ كما قلت سابقاً، إنّ التّغير الذي اكتنف سلوكك الجنسي من أغرب الغرائب.

أخفضت رأسها ودفنته في صدره المفتول العضلات وهي تهتف:

ـ توقّف! لا يتعلّق هذا بالإثارة فقط. أعرف ما تظنّه بي، لكن توقّف عن هذه الظّنون! فهي، بكل بساطة، غير صحيحة!.

عند هذه اللحظة، فقدت أيّ أملٍ في التّماسك. فدفؤه كان يحرقها، وعطره الرجولي النّافذ كان يخدّر أحاسيسها. كان يستطيع أن يفرض عليها سلطته، حتّى يفقدها الوعي.

أحسّت بنفسها تضمه إليها أكثر فأكثر ولكن صوته تناهى إليها وهو يأخذ نفساً عميقاً قبل أن يتمتم: «فليكن!».

ثم طوّق ظهرها بيدٍ وجذبها نحو قوّته الطاغية، فيما عبثت يده الأخرى في خصلات شعرها الجامحة حتّى شدّت رأسها إلى الوراء.

ـ يا إلهي!.

خرق صوته الأجش الصمت المتّقد الثقيل وفي اللّحظة ذاتها، جذبتها يداه إلى عناقٍ في شغفٍ صرف يكاد يكون وحشياً.

في حركةٍ عاصفة، انغرزت أناملها في سواد شعره الكثيف الناعم، وهي تمسك بوجهه وتقربه منها وكأنّها لن تتركه أبداً. لا، لن تفعل ذلك ما وسعها إلى ذلك سبيلاً!.

كانت هذه آخر فكرةٍ راودتها، قبل أن تذوب بين ذراعيه...

فجأةً، صدح رنين الهاتف.

كان هاتف المنزل الداخلي يقع فوق طاولةٍ صغيرة تحت إحدى النوافذ الطّويلة. تصلّب جسد رومان الرشيق، ولكن كاسي طوقته بذراعيها وأمسكته وهي تقول بتمزّق: «تجاهله».

غير أنّ رومان قبض على يديها المتشابكتين حول عنقه، وحرّر نفسه من أسرها، وسحب نفساً طويلاً مرتجفاً قبل أن يبلغ الجهاز.

تساءلت كاسي بحزنٍ إن كان سيعود إليها. بدا لها وجهه من تلك المسافة متباعداً حذراً وقد تلاشى منه كلّ شغفٍ. كان عليها أن تخترق حواجزه من قبل... كانت مستعدّةً لتخبره ما يطمح إلى معرفته، وكانت لتتوسّل إليه إن لزم الأمر كي يمنح زواجهما فرصةً أخرى.

أخذت تراقبه وعيناها تأملان أن يعود من أجلها. بعد أن أصغى في صمتٍ، أعطى إجابةً سريعة بالإسبانية وأعاد السّماعة إلى مكانها. ثم التفت فنزع قميصه من تحت البنطال، بملامح قاتمة كالحجر جموداً. ثمّ ألقى القميص على الأرض.

عند ذاك، حبست أنفاسها وأحست بقلبها يتوقّف.

مهما كان موضوع الاتّصال، فهو لم يفسد الأجواء. إنّه يعود إليها. حقاً يعود! ابتسمت له بنعومةٍ وهي ترمقه بنظرات عاشقة، ثمّ مدّت إليه ذراعيها.

إلاّ أنّه وجّه إليها تعليماتٍ بسطحيةٍ واضحة:

ـ أخبرتني تيريزا أنّ أمّي وصلت لتوّها. ستتناول الغداء معنا. انزلي إليها بينما أستحم وأبدّل ملابسي. أخبريها أنني لن أتأخر أكثر من دقائق عشر.

غاص قلبها في الأعماق.

لم تختر الدونيا ألفيرا وقتاً أسوأ لتعلن عن وصولها! راقبت كاسي رومان ببؤس وهو يبتعد عنها ويتوجّه إلى الحمّام. أحسّت بثقلٍ في حلقها. لم يتلفظ بأيّ كلمة ندم، أو اعتذار رقيق... لم يقل شيئاً. اكتفى بتعليماتٍ سطحية ونظرةٍ طويلة خلّفت الذبول في روحها. أهذه طريقته ليظهر لها أنّه، في نهاية المطاف، مجرّد رجلٍ دفعته غرائزه إلى القبول بالعرض المغري، رغم كلّ تحفظاته؟.

لا. لم تستطع أن تصدّق ذلك فما يجمعهما يفوق الرغبة. كانت تعلم ذلك علم اليقين. بعدئذٍ، أعادت ترتيب ملابسها وملاءة السرير وتلك الفكرة لا تفارق ذهنها. فقصتهما الرومانسية التي عاشاها على طول خمسة أسابيع أخبرتها أنّ المشاعر الخفية ما زالت كثيرة كثيرة. ألم تتعرّف إلى جانبٍ آخر من جوانب الرجل الذي تزوّجته؟ جانبٍ مضحك، وبالغ السحر ومثير ورقيقٍ في آنٍ؟ جانبٍ يستحيل أحياناً متكبراً لكنّه لا يكفّ أبداً عن الحب؟.

لم يبق أمامها في النهاية إلاّ أن تردّد على نفسها بمزيجٍ من البساطة والحزم، أنّه يعاني بعدها عنه، مثلها تماماً.

لم يكن الثوب الأنثوي المثير الذي ارتدته مناسباً أمام حماتها الرسمية المحافظة جداً، غير أنّها هزّت كتفيها لامبالاةً. فهذه الأيّام كانت تلبس لتسعد رومان لا لترضي ذوق حماتها في الثياب.

كما أنّها علمت أنّ نظرات زوجها ستقدّر حتماً كيف يشقّ ثوبها عند الصّدر، ويكشف عن ذراعين وكتفين لوّحتها الشمس، فيما يلتصق النسيج الناعم بجسمها، وينسدل إلى ما دون ركبتيها.

كالعادة، كانت الدونيا ألفيرا ترتدي ملابس سوداء، لا يلطّفها إلاّ خيطٌ أبيض عند الرقبة. وجدتها كاسي في البهو الصّغير، حيث نسّقت تيريزا الطاولة المستديرة بأفضل أنواع الخزف الصينية والتحف الفضية الثمينة.

بادلتها كاسي التقويم الهادىء ثم قالت: «تسعدني رؤيتك».

رغم أنّها لم تكن تعني ذلك بتاتاً.

أضافت كاسي برفق:

ـ رومان يعتذر. لقد عاد للتوّ من عمله في سيڤيل، وسيحتاج لدقائق أخرى كي يستعدّ، وبعد قليل تقدّم لنا تيريزا الغداء.

كانت المرأة العجوز جالسة على مقعدٍ يطل على الساحة المشمسة..

لمّا فرغت كاسي من كلامها، أعلنت المرأة بهدوء:

ـ كم تناسبك سان لوكار، أجدك...

حرّكت يدها الطويلة الأصابع وكأنّها تبحث عن كلمةٍ منشودة، قبل أن تتابع:

ـ أكثر تطوراً.

كان على كاسي أن تعتبر ذلك مديحاً، فهو يصدر عن أكثر الناقدات صرامةً.

بسطت يديها وأجابت: «أجد هذه البلدة وهذا المنزل جميلين فعلاً. من لا يفرح هنا؟».

ـ لكنك لم تكوني سعيدةً من قبل.

وقعت عليها هذه الكلمات كما تسقط الأحجار في بئرٍ عميق أسود، فعلمت كاسي لمَاذا أتت المرأة العجوز إلى هنا. إنه الفضول، والشك المقلق. أرادت أن تحكم بنفسها إن كان الصّلح المزعوم حقيقياً أم مجرّد حجة.

ترى، ماذا ستكون ردّة فعلها لو أخبرتها كاسي أنّها تنتظر مولوداً من ابنها؟.

فجأةً، غمرتها موجةٌ من التفهم الرحيم، واعترتها رغبةٌ في حماية هذه الحياة الجديدة التي ولدت في أحشائها. من الطبيعي أن تتمنّى الدونيا ألفيرا الأفضل لابنها، وأيّ أمٍّ لا تتمنّى ذلك؟ ومنذ ثلاث سنوات، لم تكن كاسي تمثل هذا الأفضل.

لكنّها تغيّرت، فأصبحت أكثر ثقةً بنفسها، وأصبحت أقدر على التّعبير عن حبّها لزوجها جسدياً. هذه المرّة، سينجح الزواج إن رغب رومان في ذلك.

لذا، طمأنتها بلطفٍ: «من قبل كانت المشاكل كثيرةً، وأغلبها من صنع مخيّلتي».

ـ وهل حلّت هذه المشاكل؟.

كانت نبرتها، كالعادة، مهذبة بحذر، إلاّ أنّ عينيها السوداوين الهادئتين ضاقتا بيقظة، وهي تتابع:

ـ لا أريد إلاّ السعادة لابني، أتفهمينني؟.

أجابت كاسي، وقد شعرت فجأةً بفراغ مزعج في داخلها:

ـ أعتقد ذلك. أظنّ أنّ بإمكاني أن أسعده.

لقد وجدت بعض المشاكل طريقها إلى الحل، فيما البعض الآخر ما زال يتخبط في رأسها منتظراً العلاج. غير أنّ الحل يتعلّق بها، أليس كذلك؟.

أجبرت نفسها على التفاؤل، غير أنّها لم تستطع أن تمنع أعصابها من التوتّر خاصّةً حين ارتفع صوت رومان من خلفها.

ـ ما الذي أتى بك يا أمّي؟ فعلى حدّ علمي، لم تطأ قدماك هذا المنزل منذ خمسة عشر عاماً. هل قدّمت لك كاساندرا شراباً؟ لا؟ إذاً، دعيني أصلح هذا الإهمال.

هدوء. تهذيب. تحكّم واضح. من كان ليظنّ أنّ هذا الرجل وقع قبل عشر دقائق أسيراً لنداء الجسد، رغم كل تحفظاته الذهنية الجلية؟

راحت تراقبه وهو يسكب العصير في ثلاثة أكواب.. فانعصر قلبها ندماً. كان يرتدي الأبيض من رأسه إلى أخمص قدميه، من سروالٍ ضيق أنيق إلى قميصٍ حريري يظهر بوضوح سحر كتفيه. فبدا مثال الرجل المذهل والبعيد المنال.

لمَ لم تلق على مسامعه ذلك الخطاب الذي تدربت عليه طيلة اليومين المنصرمين؟ لمَ لم تفصح عنه منذ دخل غرفة نومهما، بدل أن تتعلّق به كامرأةٍ لا تهتمّ إلاّ بإشباع رغبتها كما بات يعتقد؟.

لأنّها تكنّ له حباً عظيماً. وقد اشتاقت إليه كثيراً... نظرت إليه وهو يسلمّها الكوب ويحرص بطريقةٍ أو بأخرى على عدم لمس أصابعها. لا بدّ

من أنّ انفراده بنفسه لفترةٍ قصيرة قد ردّ إليه تعقّله.

لكنّها لم تكن تعرف أن حماتها ستفاجئهما بزيارتها. وكان الهدوء قد اكتسى ملامح هذه السيدة ما إن كلّمت ابنها:.

ـ هذا صحيح. لم أزر هذا المكان منذ وفاة أبيك. إني أفضل المحافظة على ذكرياتي. أتذكر شهور الصّيف التي قضيناها هنا، أنا وأنت ووالدك؟ أتذكر سباقات الأحصنة التي شاركتما بها على ضفة النهر؟ كنت أهتف باسمكما، وأحثكما على الفوز بصوتٍ لا يضاهيه في علوّه عامل مزرعة. والنزهات والرحلات الطويلة في كوتو دونانا، أتذكرها؟ كم كنّا سعداء في تلك الأيّام! بعد موته، لم يعد الحال إلى سابق عهده أبداً.

تلاشت ابتسامتها. وارتشفت من شرابها رشفة، ثمّ أعادت الكوب إلى الطاولة الصغيرة بجانبها.

ـ ربّما حين تمنحني أحفاداً، يعود في وسعي قضاء أيامٍ صيفية أكثر سعادةً هنا.

فكّرت كايسي: «ها قد بدأت من جديد».

إنه الابتزاز العاطفي نفسه، لكنها لم تكن عرضةً له وحدها. بل الواضح أنّ رومان شاركها في ذلك منذ بلغ سنّ الزواج.

من حسن الحظ أنّ تيريزا وصلت، وأخذت تتحرّك برشاقة في الأرجاء وترتّب الأطباق على الطاولة. فقالت الدونيا ألفيرا بنبرة أقل حزناً:

ـ سأزور المنزل في جيريز، بما أنّ مصممي الديكور قد فرغوا من عملهم. أريد أن أتأكّد من أن كلّ شيء تمّ كما اتّفقنا. سيوصلني طوماس، ولكنني فكرت في أن أروّح عن نفسي فأحمل إليك الخبر، قبل أن نتابع أنا و طوماس طريقنا إلى جيريز.

عندئذٍ وقفت وتقدّمت نحو المائدة، فيما ابتسم رومان بتسامح بسبب الصّعوبة التي تلاقيها أمّه أحياناً في تكلّم الإنكليزية. ثمّ سألها: «وما هو الخبر؟».

تبعتهما كاسي وهي ترجو ألا يتعلّق خبر حماتها بـ روي وحماقاته. كانت تشعر ببؤسها يزداد مع كلّ دقيقةٍ تمرّ، لا سيما أنّ رومان لم يكد يرمقها بنظرةٍ منذ دخل الحجرة. وعندما كان يفعل كان ينظر إليها نظرةٍ باردة برود الثلج.

سكبت الدونيا ألڤيرا في طبقها قدراً كبيراً من سمك أبي سيف مع القريدس الحلو المذاق وصلصة المحار، قبل أن تضيف بعض اللحم بالفلفل الأحمر الذي أعدّته تيريزا وسلطة البندورة. أثناء ذلك، تكلّمت: «أرجو ألاّ يكون له عليك وقع الصّاعقة. فأنا أعرف كم أنتما... كنتما متقاربين جداً لذا لا أريد أن تعرف الخبر من الصحف. لقد خطبت دلڤينا استعداداً للزواج».

تكلّم بنعومة وكأنّه يداعب طفلاً: «ولِمَ يصدمني ذلك؟».

غير أنّ كاسي لمحت تعبير ارتياح طفيف على وجهه.

لقد نجحت حيلته، وها قد ارتدّت دلڤينا العزيزة عنه. لكنّ ما بدأ بخطّة تكتيكية، لعبت فيها هي دور الزوجة العاشقة العائدة مقابل إعفاء روي من الملاحقة القضائية، قد استحال عرضاً رائعاً... زواجاً قد يكتب له النجاح حقاً. لا بدّ من ذلك بحقّ الله!.

كانت يداها متشابكتين في حضنها وسلاميات أصابعها بيضاء. لذا لم تكد تستطيع أن تسمع الدونيا ألڤيرا وهي تتابع: «دلڤينا فتاةٌ لطيفة للغاية. لطالما أملت أنا وعمّتاك..».

قاطعها رومان بسخرية: «أعرف ما أملتنّ».

ثم تناول بعضاً من الخبز الهش ليلتهم الصلصة الشهية، وأردف:

ـ وأظنّك تعلمين أنني لن أسمح بمزيدٍ من هذا التطفل. إيّاكن وتدبير مخلوقةٍ أخرى، سطحية ومناسبة، لتمكث أمامي.. بما أنّ دلڤينا خرجت من الميدان، إنني أمنعكن ذلك.

تقلصت معدة كاسي بإنذارٍ واضح وتيبّس حلقها. لمَ لم يذكّر أمّه أنّه

متزوّجٌ أصلاً؟ إنّها تجلس في هذا المكان معهما! فلمَ يتجاهلانها؟ لأنّ الدّونيا ألڤيرا تعتبر على الأرجح أنّ كاسي لا تستحقّ الملاحظة حتّى... أمّا رومان، فكأنّه لا يريد أن يتذكّر أنّها موجودة.

ولكنّها موجودة! وينبغي أن تُلاحَظ! فحرّكت لسانها الملتصق بحلقها، وسألت بثبات:

ـ إذاً من هو الرجل المحظوظ؟.

ساد الصّمت للحظات. أخيراً، أجابت الدونيا ألڤيرا بلا مبالاة: «لن تعرفيه».

وما لبثت أن التفتت إلى ابنها وواصلت كلامها:

ـ إنّه رودريغو تالاڤيرا. سيتزوجان في البرازيل حيث يعيش معظم أفراد عائلته. ويرحلان خلال بضعة أيّامٍ، ومن الطبيعي أنّ أمّها ستذهب معها أيضاً.

ـ إنّه في سنّ والدها.

بدت على رومان تسليةٌ خفيفة. وازدادت ابتسامته عمقاً حين دافعت أمّه عنها:

ـ لكنّه ثريّ. سيمنحها بائنة كبيرة ويدلّلها بشدة. ستكون سعيدة. وأنت يا كاسندرا، لمَ لا تأكلين؟.

فجأةً، تحول الانتباه إلى كاسي. فأحسّت بوجهها يتورّد حرجاً أخيراً، ولكنها أكّدت بصدقٍ:

ـ لست جائعةً حقاً.

كيف تأكل وفي معدتها ألف عقدةٍ وعقدة؟ أرادت أن ينتهي الغداء وتغادر حماتها حتّى يتسنّى لها التحدّث إلى رومان، التحدّث إليه حقاً، فتفصح له عن مكنونات قلبها وتكتشف ماذا يخبىء في قلبه.

ـ أهي إسبانيا ما يخطف شهيتك؟ من الواضح أنّك كنت تأكلين بشهية في مواطنك.

سدّدت إليها العينان السوداوان سهامهما، قبل أن تتابع الأم:

ـ أفترض أنّك كنت أسعد حالاً في موطنك؟.

فكرت كاسي في أنّ حماتها تلمّح إلى ضرورة عودة الزوجة إلى بلدها. فأخذت تمسك كوبها بتململ وهي تنظر إلى رومان من تحت أهدابها، ثمّ قالت أخيراً بشيء من التّحدي:

ـ إنني سعيدةٌ للغاية هنا، وإن كانت معلوماتك بحاجةٍ إلى الدقة، نعم، كنت سعيدةً في إنكلترا أيضاً.

لن تقوم بتسديد أيّ لكمات. لكنّ رومان، بشكل خاصّ، بحاجة إلى معرفة ماذا حدث لها... لم يكن قد وجّه لها سؤالاً صريحاً، وهي انشغلت بسحر التّعرف إليه جسدياً وبولادة حبّهما الجديدة، عن إخباره.

أدركت أنّه أصبح ينتبه إليها بتفكّر، فأضافت:

ـ لقد جازفت بالظهور بمظهر الغريبة، فاكتشفت من أكون خلال سنة ابتعادي. لم أكن مسؤولةً عن نفسي قط، وقد اتُّخذت كل القرارات عنّي على يد أبي وزوجي وأقارب زوجي.

سمعت كاسي الدونيا ألفيرا تشهق، لكنّها تجاهلتها وأردفت:

ـ للمرّة الأولى في حياتي، أصبحت مسؤولةً عن نفسي. كان الأمر مخيفاً في البداية، لكنّه مثيرٌ أيضاً. توجّهت إلى بلدتي لأنني علمت أنّ لي أصدقاء هناك.

التقت بنظرات رومان. قبل أن تواصل:

ـ وجدت شقةً رخيصة، وعملت كنادلة، كما تلقّيت بعض الدروس المسائية في تنجيد الأثاث وتجديده، وكسبت بعض الأصدقاء الجدد. كنت مسؤولةً عن حياتي، وعن ذاتي. بعد ستة أسابيع أو ما شابه، عرضت عليّ سيندي عملاً، كي أساعدها في إدارة متجرها. إحدى الإيجابيات كانت شقة من دون إيجار مع الوظيفة فوق المتجر. فقبلت العرض.. طبعاً. فقد كان الوضع هناك أفضل بكثيرٍ من وظيفتي وسكني السابقين.

أخذت نفساً، وتابعت: «لكنّ الأهم أنّ ذلك كان قراري. لم يكن أحدٌ يملي عليّ تصرفاتي وسلوكي. لم يكن أحد يشعرني أنني دونه وأنّ لا أهمية لي إطلاقاً. كما أنني غدوت أخيراً في مكانٍ أستطيع أن أسمّيه بيتي، وأستطيع أن أزيّنه وأؤثثه كما أريد».

لا داعي أن تذكر أنّ غاي قد ساعدها في زيارة المزادات العلنية، وتدبّر أمر الطلاء ببراعة، فمن غير الضروري أن تثير في ذهن رومان شكوكاً بلا طائل. ولا داعي أيضاً لأن تذكر كم اشتاقت إلى زوجها الإسباني المتكبر، أو كم حاولت ألاّ تتوق إليه، فتخلّف الماضي وراءها. ليس الآن، ليس وعينا الدونيا ألفيرا المستغرقة في حديثها لا تفارقانها. ستحدّثه بذلك لاحقاً حين يكونان وحدهما.. فحينئذٍ، ستخبره أنّ الشوق إليه كان أصعب ما مرّ عليها في تلك السنة.

سحبت نفساً بصعوبةٍ، ثمّ قالت: «إذاً، نضجت أخيراً وتعلّمت الوقوف على قدميّ واكتساب الاحترام الذاتي. والآن...».

وقفت لبرهةٍ ثم أكملت:

ـ يبدو أنّنا انتهينا. هلا سألت تيريزا تحضير القهوة؟.

نظرت إلى حماتها، ولمحت ومضة الإعجاب الخفيف في عينيها وهي تتابع:

ـ أم أطلب منها أن تأمر طوماس بتجهيز السيارة؟ لا شكّ في أنّك متحمسة للاستقرار في منزلك المصمّم حديثاً. إن كنت ستلازمينه ليومين قد أكثر، قد نزورك أنا و رومان في جولة استكشافية.

بعد نصف ساعةٍ من مغادرة الدونيا ألفيرا في سيارة ديملر قديمة وفخمة. قال هذا الأخير: «لقد تعلّمت كيف تتعاملين معها من بين سائر ما تعلّمته».

كانت «سائر ما تعلّمته». هي العبارة التي استوقفت انتباهها. تبعته كاسي بهدوءٍ إلى داخل المنزل حيث ظلام القاعة الكبرى الدامس يرجّع

ظلامها النفسي.

أسيصدّقها إن أكدت له أنّها لم تخنه قطّ السنة الماضية؟ من الواضح أنّه لم يصدّقها حتى الآن، لكن ذلك لا يعني أنّها لن تحاول مجدّداً.. ترى، هل سيفهم حقاً أنّ تلك السنة كانت ضرورية؟ لقد قال بنفسه إنّها كانت بحاجةٍ للنضوج، ولاكتشاف هويّتها وقدراتها.. وللعثور على الاحترام الذاتي الذي كانت تفتقده طيلة حياتها.

كم بدا رومان كئيباً! تملكتها هواجس سرعان ما تضاعفت ما إن التفت نحوها، لأن الظلمة اعترت تقاسيمه، في ظلّ النور الباهت في الغرفة.

ـ أريد منك أن تعلمي أنني ارتكبت غلطة حين لجأت إلى الابتزاز لأجبرك على البقاء معي ومشاركتي حياتي. لقد فكرت ملياً في الموضوع في الأيام الماضية. ما اقترفته خزي وعار، لا يمكن مغفرته أبداً.

أقحم يديه في جيبي بنطاله وقد تصلّب فمه وكست الكآبة عينيه، فأمست القراءة فيهما عسيرة لا بل مستحيلة.

سرى فيها تيّارٌ من الخوف. ما الذي يجري؟ أهي نوعٌ من الرسائل المشفرة؟ هل ستتمكّن يوماً من هدم حواجزه البعيدة العالية هذه؟ أيمكن لكلماتها وحدها أن تلامس قلبه؟ لقد انسحبت إلى مكانٍ قصيّ منعزلٍ لن تستطيع بلوغه، تماماً كما فعل حين قرّر وحده أنّها باردة، فكفّ عن إزعاج نفسه بها.

لكن عليها أن تحاول على الأقل! فسارعت تقول: «لست مضطراً للاعتذار عن شيء».

أجابها بنبرةٍ رتيبة:

ـ أنا لا أعتذر. لم أقل أن ما فعلته لا يغتفر! لذا... أنت حرّةٌ في الذهاب. إنني أحرّرك من صفقتنا. وقبل أن يساورك القلق بشأن أخيك، الذي يجب أن يكون ناضجاً بما فيه الكفاية كي يعتني بنفسه، أؤكّد لك أنّه

في حال عمل بأمانةٍ وجدٍّ، فسيضمن مكانةً جيّدة في العمل.

لقد صرفها. بكلّ بساطة! لم تكن هذه الأسابيع الماضية تعني له شيئاً! مجرّد امرأة تشاركه فراشه لا أكثر ولا أقل... وبما أنّها الآن قد أدّت مهمّتها، فباستطاعتها الانصراف.

اتّقدت نار الغضب في عينيها: «دعني أفهم. بعد أن تأكدت أنّ دلفينا قد خطبت، وستترك البلاد في غضون يومٍ أو يومين...».

سكتت قليلاً ثم أردفت:

ـ بعد أن أشبعت فضولك بشأن قدرتي في التعبير عن رغباتي، أصبح بإمكاني المغادرة!.

لم تعرف يوماً أنّ إحساساً بمثل هذه الخيانة يمكن أن يغمرها يوماً، أو أنّها قد تختبر مرةً هذا الغضب الأعمى!.

خيّل إليها أنّ غضبها يمثّل له مشكلةً، لا سيّما أنّه راح يعقد حاجبيه بوضوح. ثمّ مال برأسه قليلاً، وأجاب: «إن كانت هذه هي وجهة النظر التي ترغبين فيها، فأنت حرّة. كنت أشرح لك أنّك حرّةٌ في الذهاب، لا غير».

وماذا عن البقاء؟ لكنّه لم يأتِ على ذكر الموضوع. عرفت من النظرة الصّارمة على وجهه أنّ وجودها بات كريهاً بالنسبة له. لكنّها، رغم ذلك، ستمنحه فرصةً أخيرة، فهي تدين بذلك لنفسها ولطفلهما الذي لم يولد بعد.

سألته وهي تتمنّى ألا يكتنف الذل نبرة صوتها: «ماذا عن الطلاق؟».

في الوقت نفسه، كانت تدعو ربها ألاّ يجد هذا الأمر طريقه إلى الحقيقة. كان دعاؤها أقرب إلى التّضرع حتى كاد الألم يعصر جوانب قلبها.

أقرّ رومان ببطء: «إن كان هذا ما تريدينه».

ثم هزّ كتفيه باستخفافٍ وتصميم وأضاف: «أمّا في الوقت الحالي،

فسأمنحك حصّةً سخية...».

لوى فمه بمرارة ثمّ قال: «أعرف أنّك قلت إنّ باستطاعتك الاعتناء بنفسك، لكن لا شكّ في أنّ وظيفتك وشقتك قد شغرتا. وأنا أتحمّل مسؤولية ذلك، وأنا الى ذلك لا أحبّذ فكرة أن تصبحي نادلة، أو تخدمي في حانةٍ، كما أنك غير مؤهلةٍ لعملٍ آخر».

كان ذلك أشبه بصفعةٍ على وجهها، صفعةٍ قوية. سيغدو تمالك أنفاسها عسيراً حقاً. فما كان منها إلا أن رفعت ذقنها وقالت بصلابة:

ـ سأحزم أمتعتي إذاً. سأبقى ليلةً في سيڤيل ثم استقل أوّل طائرةٍ إلى إنكلترا.

فيما هي تتوجّه نحو السلالم، سمّرها صوته الأجش في مكانها:

ـ أخبريني حالما تجهزين، لأقلك بنفسي.

لم تلتفت. لم تستطع ذلك. لمَ تدعه يرى الدموع التي باتت الآن تنسكب بغزارة؟ ابتلعت ريقها بقوّة:

ـ شكراً، لكنني أفضّل صحبة مانويل. أخبره أنني سأجهز للرحيل خلال عشرين دقيقة.

***

١١ ـ عند الغياب...

حلّ رومان عنان جواده، وسلّمه إلى سائس الخيل الّذي هرع من الإسطبل لملاقاته. كان يتراءى للمرء أنّ وجهه، تحت قبّعته السوداء المكسوة بالغبار، مثقل بالتّقاسيم القاسية.

كانت الشمس تغرب، فترسل ظلالاً فوق الوادي المنبسط. أمّا في الأعلى، فبدت السماء صافية لا تتخللها سحابةٌ وكانت تميل إلى اللّون الأرجواني، ويحلّق فيها زوجان من النسور.

أخذ وقع جزمته يعلو فوق حصى الفناء، فيما راح يذرع المكان حتّى المنزل، وهو ينفض الغبار عن كمّي سترته.

لم يسر أيّ شيء كما ينبغي في الشّهر الذي غابت فيه كاسي، ولا شيءٍ واحدٍ! حاول أن يصرف ساعاتٍ طويلة في العمل المتواصل المضني في الأراضي. لجأ إلى حمّام باردٍ مرّاتٍ لا تحصى. وراح يعظ نفسه بصرامةٍ وقسوة عن ضرورة التّغاضي عن خساراته والمضي بحياته وما إلى هنالك. لكنّ شيئاً لم يعد عليه بمنفعة.

في الواقع، حين هجرت زواجهما للمرّة الثانية، مات شعورٌ في داخله. لم يكن قد منعه من الإمساك بها وهي تنزل السلالم إلاّ كبرياؤه المتأصلة، فإذا به وراء مشهدٍ لم يرغب في رؤيته ثانيةً في حياته كلّها. هي كبرياؤه التي منعته من التوسل إليها كي تسامحه وتبقى.

كان رحيلها للمرّة الأولى شاقّاً عليه، وسيكون هذه المرّة أشقّ بكثير. لقد منحها فرصة الرحيل، فاستغلّتها راميةً بكلّ آماله أدراج الرياح. فما عساه يفعل غير ذلك؟ لا يمكنه طبعاً أن يضغط عليها كي تبقى، خاصة بعد ما سبق أن اقترفه في حقّها.

لكنّ فكرة إجبارها على البقاء بدت في أوّل الأمر منطقية، فقد سنحت لهما الفرصة ليتعارفا من جديد، وأثبت أنّ بإمكانه أن يغدو زوجاً حنوناً ومتفهماً. كان بإمكانه أن يثبت لها أنّه ليس الإنسان المنعزل الذي عرفته من قبل. كان قد قرّر أنّه لن يكون عديم الإحساس، لن يسمح لكبريائه أن تمنعه من سؤالها عن هذا الخوف والإجفال اللّذين كانت تقابله بهما، كلّما اقترب منها.

غير أنّ فكرة الابتزاز سرعان ما خلّفت في فمه مذاقاً مرّاً. بدأ يحتقر نفسه لاستغلال قلقها العفوي على أخيها ضدّها. نعم، فليكن صادقاً مع نفسه وليعترف أنّ الغيرة لعبت دوراً كبيراً في المسألة. أين تعلّمت كلّ هذه الاستجابة المثيرة؟ وكيف؟ ومع من؟.

لكن يبدو أنّ هذه المسألة لم تعد تهمّه، فقد باتت من الماضي.

كانت أسنسيون قد تركت كالعادة العشاء البارد على صينيةٍ في مكتبه. لكنّ الطعام غدا آخر ما يخطر في باله هذه الأسابيع.

من حسن الحظ أنّ العمّتين لحقتا بأمّه إلى جيريز احتفاءً بمحصول الكرز في بداية هذا الشهر. فغياب قريبتيه الثرثارتين أمدّه ببعض الراحة، وتكهّن أنّ موضوع معاملتهما الماضية لـ كاس الّذي أثاره أمامهما سابقاً قد حثّهما على تمديد عطلتهما في جيريز، آملتين أن يتحسّن مزاجه.

لكنّه كان يعلم علم اليقين أنّ الزّمن غير كفيلٍ بشيء. لن يعود إلى رشده ولن يشعر بكيانه ثانيةً إلاّ بحبّ زوجته.

كان روي قد انتقل بدوره إلى أحد الأكواخ في العقار، مما عنى أنّه أضحى وحده، من دون من يعاني نوبات غضبه هذا إلاّ هو نفسه.

لولا كبرياؤه، لما كان وحده حالياً. لكان استعاد كاس، زوجته... زوجته المحبوبة. لكنّه لم يخبرها كم يحبّها. صرّ أسنانه وأخذ يصبّ جام غضبه على نفسه. في الحقيقة، كان على وشك أن يخبرها بذلك، كاتماً الكبرياء في أعماقه... كاد يفصح لها عن مشاعره لتغدو سعادة مستقبله رهن يديها، لو لم يطرأ عليه أمران: فقد أحسّ بكراهيةٍ عظيمة للرجل، أو الرجال الّذين علّموا كاس نشوة الحب، وشعر بالغضب الكبير لأنه أجبرها على العيش معه بهذه الطريقة...

تجاهل عشاءه كما أمسى يفعل غالباً، وألقى قبّعته فوق كرسيٍّ، قبل أن يمدّ يده نحو الهاتف.

يا لكبريائه المتعجرفة الصارمة!.

هل ملأت هذا الكبرياء قلبه فرحاً أم أنعمت على حياته دفئاً؟ لم يكن متأكّداً إلا من حقيقةٍ واحدة: عليه أن يراها مرّةً بعد، فيكبت هذا الكبرياء الحقيرة، ويركع على قدميه إن لزم الأمر، فيسألها بتذلّل أن تنسى فكرة الطّلاق، وتقضي بقيّة حياتها معه... فإن وافقت، فسيضمن لها أنّها لن تندم على قرارها لحظةً واحدة.

أمّا إن رفضت... في الواقع، لا يريد أن يفكر في هذا الاحتمال حتّى. لكنّ حاله عند ذاك لن تكون أسوأ من الآن. فما الذي يهم إن فقد كبرياءه؟.

بدا العزم على وجهه المتجهم، فضغط على الأقراص طالباً شركة إير إيبريا.

***

خرجت كاسي من الحمّام، وادثرت بالمبذل الذي أعاره إيّاها غاي، فأحسّت بتحسن طفيف.

كان الطقس في أوّل أيّام تشرين الأوّل ممطراً وينذر ببرودةٍ حتمية لكأنّها هربت من ريحٍ شتائية لم يحن أوانها بعد. وكانت كاسي قد تبلّلت

من رأسها إلى أخمص قدميها قبل أن تدخل إلى شقتها في الطابق الأرضي، عائدةً أدراجها من متجر التّحف حيث وجدت عملاً مؤقتاً بدوام جزئي.

اعتادت أن ترتاد المتجر أربعة أيّام في الأسبوع، من العاشرة صباحاً حتى الرابعة عصراً. وقد أخبرها المالك روبرت غريفز أنّ الدّوام ينتهي في تشرين الثاني، حين يعود شريكه من زيارة أقاربه في نيوزلندا.

باختصار، لم تكن وظيفةً مهمة، لكنّها أفضل من لا شيء. كما أنّها لن تضطر إلى مس حساب توفيرها. لكن، ينبغي أن تباشر بالبحث عن وظيفةٍ بديلة قريباً.

فجأةً، برزت في ذهنها صورة الشيك الّذي أرسله إليها رومان عن طريق سيندي. فصرفتها عن تفكيرها سريعاً، وهي تمسك بمشطٍ لتسرّح شعرها الطويل المبلّل.

كان المبلغ أكثر من سخيّ. فمعه لن تضطر للبحث عن وظيفة، والجنين ينمو في أحشائها. لكنّ الإغراء لم يدفعها حتّى لقبوله. فهي لا تريد منه شيئاً. بل كيف تقبله وقد اتّهمها بالزواج منه لأسباب مادية، متعمداً أن يحمّلها مسؤولية انهيار علاقتهما، كي يستغلّ فرصةً للطّلاق.

حسناً، فليستردّ ماله الحقير! ستتدبّر أمرها وحدها!.

قالت لها سيندي: «هل أنت غاضبة؟ لا أدري ما الذي ساء هذه المرّة، فقد فرغ صبري منكما معاً. لماذا تبذلين جهدك في تأمين مورد رزقك، وباستطاعة رومان أن يؤمن لك عيشاً رغيداً؟».

ـ لأنّني لا أريد حسنةً منه.

كانت تريد حبّه. وهو المستحيل للأسف ، وهي لن تقبل بما دون ذلك. هذا إلى أنّ اتّصالهما، ولو اقتصر على شيكٍ شهري، فسيذكّرها به، ممّا يقضي على قرارها بنسيان وجوده تماماً.

أمرتها سيندي وهي ترفض أن تتسلّم الأوراق الصغيرة الممزقة:

ـ إذاً، أعيديه بنفسك، فأنت تعرفين عنوانه! كما أنّ امتناعكما عن

التّحدث إلى بعضكما بعضاً طفوليٌّ وحسب. على الأقل، ناقشا الأحداث كما يفعل الناس المنطقيون. يعلم الله أنّ باستطاعته تأمين عيشك بانتظار أن تستعيدي عملك.

وما لبثت أن ردّدت: «طفوليٌّ تماماً!».

ربّما. لكنّ الألم الذي سببه لكاسي، والطريقة التي استغلّ فيها جسدها، ترك في أعماقها ألماً كبيراً.

سألتها كاسي وقد ضاقت عيناها بشكّ: «لم تخبريه عن مكاني، أليس كذلك؟».

ـ لاّ. لم يسألني. حين هاتفني، قال إنّه سيرسل شيكاً شهرياً، وإنّ عليّ أن أوصله إليك.

وهذه طعنةٌ أخرى يقطر منها الألم بغزارة، لم يكن مهتماً بأحوالها. فلتهاجر إلى أوستراليا! لن يهتمّ حتّى!.

لكن لماذا يؤلمها هذا، هي التي قرّرت أنّها لن تهتمّ به أيضاً؟ لقد اتّخذت قراراً حازماً، وقرّرت أن تغلق الصّفحة على زواجها الفاشل. لا؟.

صفقت كاسي الباب بوجه الذكريات المتعلقة بـ رومان من قريبٍ أو من بعيد. كانت تقدم على ذلك مرّاتٍ عدة في اليوم. . ووضعت المشط على المنضدة جانباً، وابتعدت عن السّرير الضيّق، وهي تشدّ الحزام حول المبذل.

كادت الساعة تناهز الخامسة، ومن المفترض أن يعود غاي خلال ساعةٍ من وكالة السفريات التي يديرها. وقد اعتادت أن تعدّ العشاء منذ نزلت في غرفة منزله الإضافية وهذا أقلّ ما يمكنها أن تقدّمه.

ستسخّن فضلات الأمس، ثم ترتدي جينزها مع كنزة دافئة. وبينما يجهز الطعام، ستحضّر طبق سلطةٍ، وتقطع الخبز المحمّص الذي ابتاعته أثناء عودتها إلى المنزل.

كانت قد وضعت الإناء في الفرن، حين تناهى إليها صرير المفتاح في قفل الباب. لاحظت الجذل واضحاً في عينيّ غاي الدافئتين العسليتين، فقالت له وهو يشق طريقه إلى داخل المطبخ.

ـ لقد عدت باكراً.

كانت تعلم أنّ وجهها لا شكّ متوردٌ بسبب الحرارة التي بعثها الفرن، هذا وبسبب الحرج الذي تملكها أيضاً. فمن المفترض أن ترتدي ملابسها قبل عودته.

كان المبذل كافياً طبعاً، غير أنه يوحي بأنّها لا ترتدي شيئاً تحته. وبالنّظر إلى الطريقة التي كان غاي يتطلّع إليها، استوعبت هذه الحقيقة جيّداً.

كانت الحالة في هذا المنزل تزداد غرابةً يوماً بعد يوم. لكنّ كلّ شيءٍ سينتهي قريباً.

ـ نعم. لقد قرّرت أن أقفل المتجر مبكّراً. فالعمل راكدٌ في هذا الوقت من السنة، على ما أظن. ويبدو أن النّاس ينظمون أسفارهم الخاصة من شبكة الإنترنت.

أغلق غاي الباب وراءه، وازداد توغلاً في الغرفة. وبما أنّ المطبخ كان بحجم بيت الدّمى، ازداد هاجس كاسي. كانت سيندي قد أفصحت لها عن حقيقة شعور أخيها ناحيتها، و رومان شكّ في الأمر أيضاً. ما كان ينبغي أن تسمح له بالضّغط عليها حتى تقبل بالمبيت هنا. فهو صديقٌ عزيز، وآخر ما تريده هو أن تلحق به الأذية.

أعلن غاي وهو ينزع ربطة عنقه، فيما عيناه لا تفارقان وجهها:

ـ فكّرت في أن نتعشى خارجاً الليلة. أريد أن أحدّثك في موضوعٍ.

ردّت بسرعةٍ: «تحدّث هنا إذاً».

فجأة، أحسّت بتوتّر في حنجرتها ينبيء عن التعاسة. أملت ألا يصحّ ظنّها بشأن موضوع كلامه فمنذ اكتشفت حملها وهو أمرٌ لا يمكن أن تخفيه

عن غيٍّ حتى، تغيّر روي تماماً. أصبح جاداً ومراعياً أكثر لها، لا بل متملكاً.

حين أكّدت له صحة شكوكه، وأجبرته على كتمان الأمر، تمتم بغيظ:

ـ إن أمسكته، فسأخنقه على ما فعله بك الحقير.

لم تكن قد أخبرت سيندي بالموضوع حتى. فعلى الرغم من حبّها لصديقتها، لا يمكنها أن تثق بأنّها لن تنقل الخبر إلى رومان.

أخرجت الملفوف من البراد وقالت: «سيجهز العشاء بعد قليل. يبدو أنّ المطر بلّلك كما بلّلني. فلمَ لا تغيّر ملابسك ريثما أنتهي بالمناسبة. . .».

أمسكت بسكّين، وبدأت تقطّع أوراق الملفوف، قبل أن تتابع:

ـ سأنتقل من الشقة في نهاية الأسبوع. لقد وجدت سريراً في شارع تشيرش اليوم.

أدارت الصنبور في محاولةٍ يائسة لقطع حبل الصّمت الثقيل. أخيراً، أجابها: «لا داعي لذلك. تعلمين ذلك».

ردّت بجدّي: «بل فيه أكثر من داعٍ. أريد أن أصبح مستقلّة. كان لطفاً منك أن تستقبلني. . .».

قاطعها وهو يلوي فمه: «كفّي عن الكلام المعسول معي! كدنا أنا و سيندي نلوي ذراعك كي تقبلي بعرضنا هذا. كان أمي وأبي على وشك بيعه والتّقاعد، ثم قررت سيندي الإنتقال إليه. لذا، كان السكن هنا آخر خيارٍ، فلا تدّعي غير ذلك».

صحيحٌ أنها واجهت الكثير من المشقات من غير أن تعثر على مكانٍ تسكن فيه. . كان العثور على عمل همّها الأول، لذا قبلت عرض غاي، أملاً في سقفٍ يأويها، بانتظارِ حلٍّ أفضل.

ماذا يمكنها أن تقول؟ كانت في الماضي شاكرةً صداقته ومساعدته

واعتناءه بها كأخ أبرّ بها من أخيها الحقيقي! لكن منذ أدركت حقيقة مشاعره وهي تريدُ أن تبتعد عنه قدر الإمكان.

لقد خبرت معنى أن تحبّ شخصاً، لا يبادلك حبّك. وهو ألمٌ لا تريد أن تذيقه لأحدٍ.

حاولت أن تمنحه ابتسامةً مهدّئة، ثم التفتت إلى المغسلة:

ـ لم أكن شاكرةً لأحد بهذا القدر، صدّقني. لكن حان الوقت للمضيّ بحياتي. تعلم أنّ تسويتنا لم تكن أبدية. أتريد حقاً امرأة مطلقة مع ابنها في منزلك؟ سينغص هذا عيشتك فعلاً ويقضي على سمعتك...

حاولت أن تدسّ نبرةً من السخرية المضحكة في كلامها كي يعلم أنّها لا تنوي انتقاده: فقالت:

ـ لقد كدّست عدداً لا بأس به من المكاسب على سريرك في الماضي.

سمعت غاي يقترب، وما لبثت أن شعرت بيده فوق كتفها. شدّ أصابعه عليها لبرهة قبل أن يجيب برضا: «إن كان هذا كلّ ما يزعجك، فلا مشكلة. سنحلّ المسألة عند العشاء».

خرج من الغرفة، فعرفت أنّها أفسدت الأمر برّمته. لقد أساء فهمها، فظنّ أنها تطمئن إلى مكانتها في حياته.

دفع رومان أجرة التاكسي، في حين كانت ساعة الكنيسة تدق دقاتها الخمس. ثمّ رتّب ياقة سترته الجلدية، ساعياً إلى الاحتماء من المطر والبرد. كانت نوافذ المتجر الخافتة الضّوء تعكس دوائر برتقالية ذهبية اللّون على الرّصيف المبلّل.

أشارت اللاّفتة على الباب إلى أنّ المكان مغلق. لكنّه استطاع أن يلمح رأس سيندي الأشقر الشعر، وهي منكبة فوق بعض الأوراق على المكتب.

دلّت خطواته على الثقة بالنفس، أمّا قبضته على مقبض الباب، فكانت ملوكية.. غير أنّ خفقات قلبه كانت قد بلغت منه الحنجرة.

ساوره بعض الشك في أنه قد لا يتمكّن من إقناع قريبته البعيدة كي

تدله على مكان زوجته الهاربة. لكن، أتقبل كاسي العودة إليه؟ أيمكنها أن تتعلّم حبّه من جديد؟ أخبرته مرةً أنّها أحبّته ذات يومٍ. إنّما، هل اختفى هذا السحر الثمين إلى الأبد؟.

فاض وجه سيندي بالابتسامات ما إن أدارت المفتاح وشرّعت له الباب. وسرعان ما هتفت:

ـ لقد عدت من أجل كاسي. كم استغرق منك هذا وقتاً!.

تبعها إلى الداخل حيث الجوّ لطيفٌ دافىء، ثم سمع سيندي تقول:

ـ هيّا معي إلى الخلف، قبل أن توقع كلّ تلك القمصان الحريرية أرضاً.

شق طريقه بين أكوام من الأثاث، ثمّ تهالك على كرسيّ مقابل مقعدها، ودسّ يديه في جيبي بنطال الدّنيم، فيما مدّ رجليه الطويلتين وشبكهما عند الكاحل.

ـ أفترض أنّها لم ترغمك على كتمان مكانها عنّي؟.

أجابت سيندي بمرح: «بل فعلت».

التفتت إلى المنضدة الصّغيرة خلفها، لتضيء مصباحاً كهربائياً، وأردفت:

ـ لكن، باستطاعتي أن أخلّ بوعدي حرصاً على سعادة الجميع. غير أنني أعدك أنني لن أحدّثها أبداً عن أخبارها التي كنت أنقلها لك. ولن أقول لها إنك أقنعتني بإعطائها وظيفةً هنا، حين غادرت كيلي لتنجب طفلها، ولا إنّك دفعت إيجار الشقة التي ظنّتها إحدى مزايا الوظيفة.

صبّت القهوة في كوبين كبيرين وهي تقول: «لقد نمت ثقة كاسي بنفسها بشكلٍ باهر خلال السنة المنصرمة. لو عرفت أنّك كنت تساعدها في هذه الفترة، لوقع عليها الخبر وقوع الصّاعقة. كم هي بريئة! لم تتساءل مرّةً لمَ كانت تتلقّى راتباً عالياً على هذا النحو، وهذا بفضلك طبعاً. لا أظنّ أنّ أساريرها ستنفرج إن اكتشفت أنّك كنت تمدّ إليها يد المساعدة طيلة هذه

السنة. لذا، ارتأيت أن أحذّرك».

ـ شكراً.

ابتسم بجهدٍ، رغم أنّ وجهه كان حافلاً بالتوتّر. لـ سيندي وجهة نظر فعلاً. فقد أثلج صدره فعلاً رؤية هالة الثقة التي تحيط بـ كاسي.

حين هجرته للمرة الأولى، بات شديد الاهتياج، لأنه قد اكتشف كم تعني له. ورغم الفشل الظاهر لزواجهما، ذاق طعم المرارة وقد اكتشف أنه لم يأتِ على أي محاولةٍ لإنجاحه، مما زرع فيه شعوراً بكرهٍ ذاتي.

أملى عليه دافعه الأوّل الإمساك بها وإدارة زواجهما نحو الإيجابية. لكن سرعان ما أوقفته الأفكار الرزينة عند حدّه. عند تلك اللحظة فقط، انقشعت السحابة فعلاً عن عينيه. لطالما سيطر عليها من حولهما بطريقةٍ أو بأخرى، ولم تسنح لها الفرصة مرّةً لاكتشاف هويّتها أو مقدراتها. لهذا، من شأن الانفراد بنفسها لفترة، من غير والدٍ أو زوجٍ أن يساعدها على الاستقلال.

أمّا هو فما عليه إلاّ أن يسهر عليها من خلال سيندي، فيمدّ إليها المساعدة عبر يدٍ غير مرئية. وعندما يحين الوقت ذات يومٍ، ويقرّر أنّها أصبحت على قدم المساواة معه، فسيطلب منها العودة إليه.

لكن القدر أبى إلاّ أن يتدخّل في صورة أعمال أخيها الإجرامية. فقلب رومان الوضع رأساً على عقب.

رغم ذلك، حين يترسخ زواجهما ذات يوم، ويُضحي حبّها له قوياً ومتيناً كحبّه، سيخبرها كيف أخذ يسهر على راحتها بعناية. وستزول كلّ الأسرار بينهما..

مدّت إليه سيندي كوباً من القهوة الحارّة، قاطعةً عليه حبل أفكاره المتأججة.

ـ اشرب هذا، يبدو أنك تحتاج إليه، بل يبدو أنّك لم تذق طعم الأكل أو النوم منذ أيّام.

لم يستطع أن يجادل هذا الكلام الأقرب إلى الحقيقة. فارتشف الشراب الساخن وهو يراقبها عن كثب، فيما أمسكت بورقةٍ، وخطّت عنواناً عليها سريعاً.

ـ لا أدري ما الّذي ساء بينكما، فهي لم تخبرني. كنت متأكّدةً أنّكما ستفتحان صفحةً جديدة هذه المرّة، لكن حين عادت إلى هنا، بدا لي أنّ عالمها قد انهار كلياً.

أقرّ بعمق وقلبه يخفق بأملٍ مفاجىء: «كان الذنب ذنبي».

لو أنّها كانت سعيدةً برحيلها كما أوحى سفرها السريع، لما بدا عليها هذا التّشتت، أليس كذلك؟.

دفعت سيندي الورقة إليه، وقد ضاقت عيناها في صراعٍ، لم تعرف فيه إن كان من الحكمة أن تخبره أنّ زوجته تقيم مؤقتاً مع شقيقها.

أخيراً، قرّرت ألا تفعل. فكبرياء رومان كبيرة. وقد يدفعه هذا الخبر إلى العودة أدراجه، والتوجه مباشرةً إلى إسبانيا.

هذا من ناحية. لكن، من ناحيةٍ أخرى، يعلم رومان أن ثلاثتهم أصدقاء حميمون منذ نعومة أظفارهم. كما أنه لا يعرف أنّ غاي مغرمٌ بـ كاس، وأنّ كاس غير مهتمة به، لأنها ما تزال مغرمةً بزوجها.

تنهدت سيندي. عليهما أن يحلاّ المسألة بنفسيهما. ولقد قامت بأكثر مما ينبغي، حين دلته على مكان كاسي.

ـ ما عليك إلا أن تسير عشر دقائق. لكن باستطاعتي أن أدبّر لك سيارة أجرة، فالمطر غزيرٌ في الخارج.

وقف والصّبر يلح عليه بالخروج: «سأسير إن أشرت عليّ بالتّوجيهات».

فلا شكّ أن سيارة الأجرة تستغرق أكثر من عشر دقائق لتصل إلى هذا المكان، أضف إلى أنّ بضع قطرات من المطر لن تؤذيه.

حين بلغا الباب، أعطته سيندي التّوجيهات البسيطة، وأضافت بنبرةٍ

يخالطها التردد:

ـ أجهل مشاريعك، كما أعلم أنّك كريمٌ في العطاء، بخيلٌ عند الطلب، لكن باستطاعتك المبيت عندي الليلة. ليس في منزلي إلاّ سريرٌ واحد. لذا، يمكنك النوم على الأريكة. تعرف كاس رقمنا. فهاتفنا وسيقلّك أحدٌ منا.

ـ إذاً، أنت تجدين أنّ الطريق ستكون وعرة؟.

كان يخفي بنبرته المرحة اضطراباً عصر جوانب قلبه.

ـ من قال إنّني لن أقضي الليلة وبقية حياتي مع كاس؟.

كان أمله كبيراً بيحث كاد يمزق أحشاءه.. لكن إن انطفأ هذا النور الذي يضيء كآبته، فسيغدو جامد القلب، بارد الجسد.. وحينها، ستكون رفقة أيّ كان مشقةً لن يستطيع تحمّلها. حينها، سيفضّل أن يذرع الشوارع، أو يبحث عن سيّارةٍ أجرةٍ ليلية تقلّه إلى المطار مباشرةً.

منح سيندي ابتسامةً كئيبة، ثمّ سار تحت المطر.

* * *

كانت يداها ترتجفان وهي تفرم بسرعة البصل الحلو والفلفل الأحمر والكرفس، ثمّ تضيفها إلى وعاءٍ مليء بالخس.

كان عليها أن تلبس قبل أن ينتهي غاي من حمّامه وتغيير ملابسه. وعندئذٍ، ستتحصّن من نظرة الرغبة التي قرأتها في عينيه، وتتمكّن من الشرح له بأنّه قام بافتراضاتٍ خاطئة، وأنّها لن تعتبره أبداً أكثر من صديق.

قد تشرح له أيضاً أنّها ما زالت تحبّ رومان، ولعلّها ستحبّه دوماً، رغم كلّ ما حدث. لكنّ غاي لا يملك فكرةً عن ذلك طبعاً. كلّ ما يعرفه هو ما أخبرته عنه هي و سيندي حين أكّدتا أن الصلح لم ينجح. غير أنّ ذلك لم يوقفه عن كره رومان. فهو ما زال يلومه على كل المصائب التي حلّت بها في حياتها وقد يكون محقاً.

لكن كيف تنسى اللّحظات الجميلة أيضاً، والذكريات التي ستحفظها

إلى الأبد؟ ذكريات زمنٍ صدّقت فيه أنّ حياتهما ستكون معاً، حتّى نهاية العمر. كيف تنسى تلك الأسابيع البطيئة في سان لوكار؟ والشمس والريح.. كيف تناسهما؟ كانا يتجوّلان في البلدة القديمة معاً، يداً بيدٍ، فيرتشفان القهوة في مقهاهما المفضّل، حيث المسجلة ترسل ألحان الأغاني الإسبانية القديمة، وشجرة البرتقال بأريجها العذب ترحّب ظلالها بهما فوق الطاولة المختارة. أمّا الأمسيات الطويلة وليالي الحبّ المثيرة...

هنا، زلّت السكين من أناملها المتوترة، ووقعت فوق الأرض المكسوة بالأجر. فما كان منها إلا أن طرفت بعينيها وعضّت شفتها وقد عادت إلى أرض الواقع، ثمّ أنّت وانخفضت لتلتقط السكين من تحت البراد.

عند هذه اللحظة، سمعت باب المطبخ يفتح.

ـ اللّعنة!.

كانت تسبح في خيالها غارقة في الذكريات التي لم تزدها إلا ألماً، في حين كان ينبغي أن تجدّ في العمل، فترتدي سروالها الباهت وسترتها الفضفاضة، ثمّ تعقص شعرها إلى الوراء.

أمّا الآن، فهل يمكن ألاّ يأخذ غاي فعلاً فكرة خاطئة عن الوضع برّمته؟.

تركت السكين مكانها، وراحت تنظر الى زوجٍ من الأحذية، قبل أن تنقل نظراتها عالياً إلى ساقين مديدتين يغلفهما سروالٍ أسود ضيق، فإلى سترةٍ جلدية سوداء، تتساقط منها قطرات المطر.

رومان!.

كان شعره الأسود المبلّل ملصقاً برأسه، وتقاسيم التعب واضحةً على جانبي فمه. إلا أنّها لمحت في عينيه وميضاً خطف أنفاسها، وزاد من ضربات قلبها، حتى أرسل القشعريرة في بدنها.

ـ كان الباب مفتوحاً، فدخلت مباشرةً.

بدا صوته مخملياً، كصوت عاشقٍ لطالما سكن أحلامها.

ـ ينبغي أن تحتاطي أكثر يا كاس. إنّني أقلق عليك.

شقّت ابتسامةٌ بطيئة، مغريةٌ تقريباً، طريقها إلى فمه، وتابع:

ـ لكنّ الرائحة شهية على الأقل، ممّا يعني أنّك لا تهملين نفسك كما كنت أخشى...

كانت الأفكار في ذهنها في تخبطٍ جنوني، فذهبت محاولات تعقّلها أدراج الرياح، لا سيّما وهي ترى أن تخيّلاتها الجامحة تبصر النور في نفسها التي كانت على شفير الهاوية!.

بذلت جهداً كبيراً لتقف على قدميها، وجهداً أقرب لتبحث عن صوتها: «لماذا أنت هنا؟».

كان صوتها أشبه بالهمس. لم تستطع أن تشيح بعينيها عن وجهه. هذا الوجه القريب إلى قلبها، المحبوب بشدّة. لكنّه بدا أكبر بسنواتٍ، فقد بانت الهالات السوداء تحت العينين. وشعرت بمزيجٍ من الحنان والألم. أيعقل أنّه كان يعاني مثلها تماماً؟.

كانت عيناه نصف مغمضتين، ومع ذلك، فقد أذابتا قلبها ذوباناً. ولمّا أبصرت بعض التّورد في بشرته، عرفت وقد تملكها إحساسٌ من الصدمة، أن مبذلها قد انشق كاشفاً جمالها الذي لا يقاوم.

ابتلعت ريقها بانقباض، فهرعت تشدّ من الحزام وتربطه بإحكام حول خصرها. فبادر يقول بصوتٍ أجش، وهو يزداد منها اقتراباً:

ـ لا تخفي نفسك عني. فيك من الجمال ما يؤلم القلب أيتها العزيزة! لقد عدت من أجلك إن كنت تقبلين بي. فهلاّ قبلتني يا كاسي؟.

ترقرقت الدموع في عينيها وقد أخذ منها الدوار كلّ مأخذ. بدأ قلبها يرتعش، وما استطاعت إلاّ أن تناضل كي تتحكّم بأوتارها الصوتية، فتجيبه بالموافقة المرة تلو الأخرى. ستقول له إن العيش بقربه لطالما كان الأمنية

الأغلى على قلبها.

صدر عنها صوتٌ، بدا بلا معنى لشدّة ارتباكها. ارتفعت يداها إلى وجهها في محاولةٍ لصدّ هذه الانفعالات المتشتتة التي هزّتها هزاً. وأجبرت رجليها على التقدم نحوه بطريقةٍ أو بأخرى، أملاً في أن تجيبه عن سؤاله باللمسات، حيث تتشابك الأيدي، وتغرق في عناقه، فتقدّم له الرد اليقين.

ـ اللعنة! كفّ عن مطاردتها، ألم تُحدث ما يكفي من الضّرر بعد؟.

كان ذلك صوت غاي، الحافل بالغضب.

بدا واقفاً عند عتبة الباب، لا يرتدي إلا مبذلاً حريرياً يوحي بوضوح أنّه لم يكن يلبس شيئاً تحته.

تبع انفجاره الغاضب صمتٌ ثقيلٌ حاد. أمّا كاسي فلم تعرف.. هل تقهقه عصبيةً أم تنفجر بكاء!

استحالت عينا رومان باردتين في وجه قريبه البعيد. وتشنّج أنفه الروماني في استياءٍ جليديّ.

تابع غاي متوعداً: «ولا تنظر إليّ هكذا. هذا بيتي، وإنني أخبرك أننا لا نريدك فيه. إن كنت تريد الاتّصال بـ كاسي، فليكن عبر محاميك».

اتسعت عينا كاسي إتّساعاً مذهلاً، أما وجه غاي فأصبح أحمر الآن، حتّى خافت أن يصاب بسكتةٍ قلبية. فأمرته بقدر ما استطاعت من ثباتٍ في ظلّ هذه الظروف.

ـ غاي.

ـ ألا يحقّ لي الكلام هنا؟.

ارتفع صوته كمقطوعةٍ صادحة: «لا! إنني أتعامل مع هذه المسألة، وسأنعم عليك بخبرٍ يا فرناندیز. إنني أعتني بـ كاسي، وسأتزوجها وأربّي الطفل..».

قاطعته نظراتٌ إسبانية متكبرة وهو يتحدث.. ثم التفتت العينان المضطربتان الفحميتان قليلاً ناحية كاسي. وبعد أن تنحى غاي جانباً بذكاء، تقدّم رومان نحو الباب، حتّى ابتلعه اللّيل الممطر الأسود.

***

١٢ ـ انتهينا!

ـ هذه مأساة تامّة!.

تهالكت سيندي على المقعد الوحيد في الغرفة القذرة.

ـ كان غاي في حالةٍ سليمة حين هاتفني هذا الصباح وأخبرني أنّك انتقلت من الشقة. أخبرني عن مكانك، فجئت ما إن أغلقت المتجر. أين رومان؟ وماذا تظنّين نفسك فاعلة في هذه الحفرة؟ أحياناً أظنّ أن سجنك هو الأسلم لحالتك!.

اضطرت كاسي للموافقة بكآبة على تعليق صديقتها المرير. لكنّ إيجار الغرفة كان رخيصاً والأهم أن ليس فيها شريكاً كغاي.

كان قد خلد إلى النّوم في الأمس بكلّ بساطة، بعد أن أخبرته أنّه دمّر كلّ حياتها، وذكّرته أنّه مخطىء كلّ الخطأ إن كان يرى في عرضه الزواج بها وتربيته طفلها أيّ قدرٍ من الشهامة.

ولا يخفى على أحدٍ أن كلامه أعطى رومان انطباعاً خاطئاً عن علاقتهما.. وأساء الظن كثيراً.

قضت ليلتها في كربٍ وهي تحزم أمتعتها البسيطة. ثمّ راحت تذرع المكان جيئةً وذهاباً منتظرةً انبلاج الفجر كي تنتقل من هذه الشقة. أمّا النوم، فلم يخطر في بالها قط.

أراد رومان أن يستعيدها.. أراد أن يكتب لزواجهما النّجاح. أمّا الآن، فهو يظنّ أنّها مرتبطة بعلاقةٍ مع غاي، وتنوي إنجاب طفلٍ منه. وهل

www.elromancia.com

يحمل كلام غاي أيّ تفسير آخر؟ لا عجب أنّه غادر سريعاً. لا بدّ أنّه يظنّها امرأةً قذرة، ولن يفكّر يوماً في الارتباط بها من جهةٍ أو من أخرى!.

ردّت سيندي بحدّة:

ـ إذاً، ماذا حدث؟ لقد عاد رومان من أجلك. أعرف ذلك لأنّني أعطيته عنوان غاي بنفسي. لا تقولي لي إنّك طردته!.

كانت أحداث الليلة الماضية تلقي بظلالٍ من الصدمة عليها. فلعنت الدموع الضعيفة التي سالت من عينيها وتمتمت ببطء: «إنّها قصة طويلة».

لم تكن تريد التّحدث في الموضوع فعلاً. لكن عرفت أنّها مضطرة، فسيندي لن تتركها حتّى تعرف كلّ شيء.

سألتها بتعبٍ وهي تتوسّل لحظاتٍ إضافية من التهرب: «لمَ لا أعدّ القهوة؟».

اتّجهت إلى زاويةٍ من زوايا الغرفة حيث يفصل المغسلة والفرن الصغير، عن سائر الأشياء، ستارٌ بنيّ مهترىء. كانت قد ابتاعت بعض الحاجيات الأساسية على طريق عودتها من المكتبة حيث تعمل، لكنّها لم تملك القوة الكافية لتفرغ الأكياس.

راحت تبحث عن كيس البن، وما إن وجدته حتى أعدّت القهوة، فأحسّت عندئذٍ أن تأجيل الموضوع لم يعد ممكناً، فتهالكت على حافة السرير الوحيد وأفرغت كل ما في جعبتها من كلام لصديقتها..

انفجرت سيندي وهي تضع كوبها الفارغ على الأرض:

ـ اللّعنة، كيف يقترف أخي الغبيّ ذنباً كهذا؟ ظننت فعلاً أنّ الأمر سيكون على ما يرام. لقد احتفظ بمشاعره لنفسه وتصرّف كسيّد نبيلٍ، على الأقل حين عدتِ في المرّة الأولى.

أخذت تلوّح يديها بعنفٍ، والتقطيبة تعلو جبينها.

ـ في المرة الوحيدة التي أفصح عن مشاعره تجاهك، أكّد لي أنّه لن يتفوه أمامك بكلمة، أو يلمّح إليك، ما دمت متزوجة من رومان. ظننت أنّه

سيعيد الكرّة هذه المرة، وإلاّ...

هزّت رأسها بيأس وتابعت: «أنا آسفةٌ جداً يا كاس!».

أجابت بكسل: «لست حاضنة أخيك. ما حدث حدث».

ردّت سيندي بعزم: «لكنّه لم ينته. متى اكتشفت أنّك حاملٌ؟».

ـ في نهاية آب على ما أظن. قبل أن ينهار كلّ شيء.

ـ لمَ لم تخبري رومان إذاً؟ كان ليبتهج حقاً! لم أخفيت الأمر عنه؟.

ـ لأنّ...

سحبت كاسي نفساً طويلاً لأن جسدها كلّه كان يرتجف باضطرابٍ داخلي. ولم تظن أنّ باستطاعتها تحمّل المزيد.

ـ لأن ماذا؟.

استنشقت نفساً عميقاً آخر، ثم تلفظت بحدّة:

ـ لأن رغم تحسن وضعنا، لم يقل مرّةً إنه يحبني أو يريدني لبقية حياته.. كان يتوقّع رحيلي في نهاية الأشهر الثلاثة. ولم ينبس ببنت شفة كي يجعلني أغيّر رأيي. بل كان يصدّر إليّ الأوامر كما في الماضي، وما إن عرف أنّ دلفينا لن تسبّب له أي ازعاج حتى قال لي إنني حرة في الذهاب.

ـ هذا يؤكّد لي أنّ كليكما ميؤوسٌ من وضعه في ما يتعلّق بالتواصل. لكنني لا أفهم لماذا لم تخبريه بأنه سيغدو أباً.

ـ لو أخبرته بشأن الطفل، لأصرّ على بقائي. هذا ما أعرفه.

عضّت كاسي على شفتها السفلى المرتعشة، وأضافت:

ـ ألا تفهمين؟ أريد منه أن يرغب في بقائي من أجلي أنا، لا من أجل الطفل الذي كنت أحمله. فقد كان يرغب في وريثٍ. وأنت تعرفينه، فلو علِم أنني حامل لفعل كلّ ما بوسعه ليحصل على الوصاية. وأنا أريد هذا الطفل!.

أشارت سيندي: «إنه طفله أيضاً. عليك أن تخبريه».

ـ إنّه يظنّه طفل غاي.

وقفت سيندي وتكلّمت بحزم وثبات:

ـ إذاً، عليك أن تقنعه بالعكس، أليس كذلك؟ أفهم أنك متضايقة، وأنك لست في حالةٍ تخوّلك التكلم بوضوح، لكن صدّقيني، إنّ رومان يحبك فعلاً. لمَ إذاً قد يطلب منك العودة إليه؟ لكنّ أخي الغبي تدخل في الموضوع. ليس الأمر مهماً! بل مجرّد تفصيل صغير. يرجع الأمر إليك لإعادة الأمور إلى مجاريها ثانيةً.

حين توقّفت السيارة في تلك اللحظة أمام البيت الريفي الحجري الواسع في قلب الأراضي المنتشرة، تمنّت كاسي لو أنّها قبلت عرض سيندي التي كانت قد عرضت عليها المجيء معها إلى لاس كولیناس ڤيرديس.

كان الظلام يوشك أن يسدل ستاره، والريح التي تهب من الجبال البعيدة تحفل ببرودة خريفية واضحة. ورغم أنّها كانت ترتعش، كانت تشعر بأن يديها مبللتين بالعرق.

بعد أن تركتها سيندي قبل بضع ليالي، استطاعت أخيراً أن تتخلّص من جروحها وتنفضها بعيداً، فبدا لها كلّ شيء بسيطاً جداً.

ستتبع رومان إلى اسبانيا وتخبره الحقيقة. والطفل طفله لا طفل غاي.

رغم ما آلت إليه الأمور، سيصدّقها طبعاً، أليس كذلك؟ فعلى أيّ حال، لا شكّ أنّه اشتاق إليها، كما اشتاقت إليه، ففكّر في ما حدث، وندم على أنّه أمرها بالرحيل. لا شكّ في ذلك، وإلاّ لماذا أتى إلى إنكلترا، وطلب منها العودة إليه؟.

في هذه اللحظات شعرت بأنّها شديدة الثقة بنفسها، وبه أيضاً..

لكن، مع اقتراب موعد مواجهة رومان، لم يبدُ الأمر بسيطاً تماماً. لعلّ كلمة «مخيفاً» هي الصفة المثالية. فما الذي تعرفه عنه؟ ما الذي تعرفه حقيقةً؟ أنّه قد يكون عاشقاً رقيقاً وحنوناً ومراعياً لمشاعرها.. وأنه قد

يستحيل أيضاً في طرفة عين غريباً بعيداً هادئاً، محتفظاً بأفكاره لنفسه، حتّى تغدو دوافعه لغزاً يصدّها عنه.

ارتجفت وأجبرت نفسها على مغادرة السيارة، وهي تمسح يديها المبللتين بالعرق بسروالها العاجي.. لم يعد البقاء خارجاً ينفع، ولا الندم على قرارها الذي اتخذته بالمجيء إلى هنا. فلتفرغ من الموضوع، ولتكفّ عن العصبية وتعثر على بعض الثقة التي لطالما سعت إليها حتى اكتسبتها!.

لا يمكن أن تكون قد فقدتها كلّها. لا يمكن أن تعود تلك المرأة التي كانت عليها أول زواجهما.. حين كانت امرأةً خجولة معقودة اللّسان!.

تركت حقيبتها الصغيرة على المقعد، وأزاحت بعض خصلات شعرها النحاسي وراء أذنيها، ثمّ استقامت قبل أن تتوجّه بنشاط نحو الباب الأمامي.

كان الباب الثقيل المنقوش غير مقفل كعادته. حاولت أن تتجاهل موجات القلق التي أخذت تستبدّ بها ثانيةً، فتزرع الفوضى في داخلها، ثمّ شرّعت الباب ودخلت.

ماذا لو طردها ثانيةً، رافضاً الإصغاء إليها حتّى؟.

أو ماذا لو أصغى، فصدّق أن الطفل منه، ثمّ قرّر الحصول على ابنه لا عليها؟ لقد سبق له أن شكّ في علاقاتٍ متعدّدة جمعتها برجالٍ غيره. فما المانع إذاً؟.

لا بدّ أنّ شكوكه كلّها قد تحقّقت بعدما رآها و غاي في تلك الحالة، وهما لا يرتديان شيئاً إلا المبذل، ويتشاركان شقةً بعد أسابيع قليلة من رحيلها عنه. أسيحاربها في المحاكم من أجل الوصاية على ابنه؟ هل سيفوز؟.

كان كلا التّصورين لا يحتمل ويسبب جرحاً قد لا يندمل. المشكلة أنّه رومان الذي يملك عقلاً كالمتاهة، ولم يستطع أحدٌ أن يكتشف فيما يفكّر.

ابتلعت ريقها بانقباض، ثمّ عضت على شفتها وأصغت. كان الصّمت يسود المنزل، والأجواء توحي بأن لا أحد في الداخل.. ولكنها مع ذلك أخذت نفساً وتوجّهت نحو المطبخ.

لمّا فتحت الباب، طالعتها نكهة الأكل الطيّبة وخفتت الأصوات الرجولية الإسبانية فجأة، فيما التفتت أسنسيون التي أشرق وجهها ما إن رأتها.

ـ لقد جئت يا سنيورة. هذا جيّد!.

تقدّمت، وبلغت طرف المائدة الطويلة حيث يأكل العمال العازبون، ثمّ قالت:

ـ لم تكن نتوقّعك، فالسيد لم يقل شيئاً. لكنني سأطلب من ماريا أن توقد ناراً من أجلك، وسأعدّ لك طبقاً سريعاً.

تمكّنت كاسي من رسم ابتسامةٍ ضعيفة وأجابت:

ـ شكراً يا أسنيسون، لكنني لست بجائعة. وأرجو منك ألا تتكبدي عناء إشعال نارٍ.

كان من الواضح أنّ العائلة غير موجودة. وأين رومان؟ كانت متأكدة جداً من أنّه عاد إلى أرضه في الأندلس عالي الرأس، شامخاً بكبريائه الإسبانية المتأصلة في نفسه منذ أن تركها.

لمحت روي الأشقر الشعر من بين الوجوه السمراء حول الطاولة. رأته يبعد الطبق قبل أن يكمله وينتصب واقفاً. فقرأت الراحة..

وسرعان ما استؤنفت الأحاديث حول الطاولة. فعادت تسمع طقطقة أدوات المائدة وضحكات بعض الرجال، وإذا بالأجواء تعود إلى طبيعتها.

ـ أختي! حمداً لله أنك عدت أخيراً!.

أمسك بذراعها عند كتفها تقريباً، وهو يحثّها على الخروج من المطبخ، وإغلاق الباب خلفهما.

ـ علينا أن نتكلّم.

غمرت كاسي مشاعر من العصبية. فعلى الرغم من حبّها الكبير لأخيها، إلاّ أن حالتها لا تسمح لها بالاستماع لمشاكله، مهما كانت. فسألته بحدّة:

ـ أين رومان؟ أتعرف؟.

ـ في سان لوكار. اسمعي، سأقول لك ما أعرفه حين نصل إلى بيتي. لن نتعرض للإزعاج هناك، ولن يكون من أحدٍ ليسترق السمع إلينا. في هذا المكان من الشائعات ما يكفي.

رمقته بقلقٍ وسألته: «أهو بخير؟».

كلّ هذا بدا لها منذراً بالسوء.

ـ عدا عن مزاجه الأسود الهادر، نعم. هذا على حدّ ما أعلمه.

عرفت أنّها لن تستطيع استخلاص المزيد منه، فاستسلمت وتبعته، وهو يخطو باتّجاه فناء الإسطبل، والساحة المربعة. كانت الأنوار تتوهج من نوافذ الأكواخ، المخصصة للعمال.

حين دفع أخوها باباً، سألته بصوتٍ خالٍ من الحياة: «ألم تعد تعيش مع العائلة؟».

ـ لا، حمداً لله!.

رافقها إلى غرفة الجلوس المريحة التي فرشت بمقعدين، وبسطت بسجّادةٍ ملونة فوق ألواح الأرضية المصقولة.

ـ أظنّني استحقّيت كل ما أصابني. لكنّ طريقة العجوزات الثلاثة في مراقبتي، وكأنني سأسرق تحف العائلة، كانت تدفعني إلى الجنون. أظنّ أن رومان عرف ذلك. في كلّ الأحوال، لقد عرض عليّ هذا المكان.

أدركت كاسي بانزعاج أنّ غرقها في مشاكلها، أنساها مشاكل توأمها، فسألته: «هل استقرّيت هنا؟».

ـ طبعاً، من الجيّد أن يحظى المرء بمكانٍ خاص به ولو لم يكن

واسعاً.

ترامت كاسي على مقعدٍ وهي تحاول ألاّ تقلق بشأنه:

ـ أقصد عملك هنا في الأرض، وتصرّف رومان معك.

ـ لم يكن سيئاً كأولئك النسوة الثلاث. في الواقع، إنّه نبيلٌ في أعماقه. لقد عرضت عليه أن أدفع المال الذي استدنته...

احمرّ وجهه وقد رأى حاجبيها يرتفعان، فصحّح:

ـ حسناً، المال الّذي أخذته. وقد قلت له إنّ باستطاعته اقتطاع بعضه من راتبي كل أسبوع. لكنه أجاب بالرّفض، وأكّد أنّه سينسى كلّ شيء إن أصبحت مستقيماً.

ـ وهل أنت مستقيمٌ؟.

بدا لها أنّ رومان يستطيع مسامحة أخيها على سرقته واستغلاله. فهل يسامحها على أخطائها المزعومة، فيصدّقها حين تخبره أنّها لم ترتكبها؟.

قال روي بهدوءٍ، وهو يجلس قبالتها:

ـ لا تقلقي يا أختاه، لقد تعلّمت درسي. في البدء، ظننت أنّني سأكره هذا المكان، وأنني سأفتقد حياة الليل والآنسات الجميلات والسيارات السريعة والمطاعم الغالية. لكن، أتعلمين؟ لم أفعل. إنّني أستمتع بالعمل وأتعلّم إدارة الأراضي. لن أخطىء ثانيةً أو أفسد فرصي هنا. لقد وعدني رومان بأن باستطاعتي الإنابة عن المدير الحالي حين يتقاعد بعد سنوات. المشكلة أنّ رومان يتحدّث عن بيع كلّ شيء إلا البيت في جيريز، والمغادرة بعد ذلك. كان الأمر بمثابة قنبلة، صدّقيني. لهذا، سعدنا جميعاً برؤيتك. يمكنك أن تقنعيه ببعض التعقّل.

أحسّت كاسي باللّون يرحل عن وجهها، فهمست: «أنهم».

لطالما كانت هذه العقارات الواسعة من ملكيات عائلته لأجيالٍ لا تحصى، ولطالما فاخر بميراثه. فكيف يفكر في بيع كلّ شيء، فيحرم

وريثه العتيد من ثروةٍ مغرية؟.

ـ ولا نحن نفهم أيضاً. ظننت أنّه بإمكانك، بصفتك زوجته، أن توضّحي الموضوع. لقد اصطلحتما، ثم قمتما بشهر عسلٍ ثانٍ.

ثمّ... حرك يده بعنفٍ وتابع: «ثمّ عاد إلى هنا، وحده. لم يعرف أحدٌ ماذا حدث لك. بعد أربع وعشرين ساعةٍ، غادرت العمتان.. أما عن مزاجه العكر فحدّثي عنه ولا حرج. الذي جعل الجميع لا يجرؤون على النّظر إليه! بعد بضعة أسابيع، غادر إلى انكلترا.. ثمّ عاد أدراجه في اليوم التالي، وقد ازداد مزاجه تعكّراً.. تقول أسنسيون إنه أخبر مدير العقارات أنّه سيبيع الأملاك.. هذا الصّباح، ذهب إلى سان لوكار. سيكون البيت هناك أوّل ما يباع. هلاّ أخبرتني بعض التّفاصيل؟ ما الذي فصلكما هذه المرّة؟ لا بدّ أنّ خطباً وقع؟ لا بدّ أنّك ضايقته جدّاً!.

كان باستطاعتها أن تخبره الكثير من التفاصيل، لكنّها لن تفعل. فهذا بينها وبين زوجها وستقدم على ما بوسعها لإعادة الأمور إلى نصابها بينهما.

وعدته وفي صوتها حزمٌ وعزمٌ ونشاط.

ـ سأفعل ما بوسعي.

إن قراره المفاجىء بالبيع دليل على أنه يتألم كثيراً.. لذا هي بحاجةٍ لتكون معه.

وقفت وقررت الذهاب في الحال.

ـ إن دللتني على الحمام، ثم أعددت كوب قهوة، أكون قد استعددت للانطلاق.

بدا متفاجئاً: «لكنّها على بعد مئاتٍ من الأميال يا كاس. دعي الأمر حتّى الصّباح. لا فائدة من...».

ألقت نظرةً إلى ساعتها..

ـ إن انطلقت الآن، فسأصل قبل منتصف اللّيل.

كانت مستعدّةً للقيادة حتّى الفجر إن تطلّب منها الأمر ذلك. فلا شيء سيبعدها عن رومان. لا الآن ولا في المستقبل!.

***

١٣ ـ سارقة!

بلغت كاسي مقصدها قبل نصف ساعةٍ من الموعد الذي حدّدته عند منتصف اللّيل. فأوقفت سيّارتها في إحدى المساحات الفارغة من ساحة موريش، وأمسكت بحقيبتها الصّغيرة، قبل أن تستقيم وتمطّ ذراعيها محاولةً طرد ذلك الشعور المزعج الذي اكتنفها.

خارج المقهى بدت طاولات، اجتمع حولها الناس زوجين زوجين في عشاءٍ متأخّر، كعادة أهل الجنوب في السهر. تناهى إليها من بعيد صوت الغيتار، يصدح بلحنٍ حزينٍ مألوف.

فجأةً، اجتاحها إحساسٌ بالخسارة واليأس. أيتمشيان ثانيةً، هي ورومان، يداً بيد، إلى مقهاهما المفضّل، ويجلسان في ظلّ شجرة البرتقال، فيراقبان العالم من حولهما، حيث يجمعهما رباط من الدفء والحب؟ أم أنّها ستشهد اللّيلة انهيار كل شيء؟.

لم تكن رياح الأطلسي قويّةً هذه المرّة. سحبت كاسي نفساً عميقاً من هواء اللّيلة المظلمة المنعش، ثم توجّهت إلى الأعلى حيث الشوارع الضيقة التي أضاءتها المصابيح المعلقة على جدران البيوت المتلاصقة.

راحت تردّد على نفسها أنّها ليست متوترة. وكانت تردد ذلك لتخفي الرعب المتدفق إلى قلبها، فاللّيلة ستشهد حياتها انقلاباً مصيرياً. هل يمكن أن تتواصل هي ورومان أخيراً؟ يجدر بهما ذلك.

لكنّ اللّوم يقع عليها بقدر ما يقع عليه. فقد عجزت عن إخباره بحاجاتها، وبحقيقة مشاعرها وبعمق الحب الذي تكنّه له.

كان البيت الذي لطالما انجذبت إليه غارقاً في ظلام دامس، والنوافذ العديدة التي تطلّ على الشارع الضّيق مغلقة بإحكام. بَدا المنزل منعزلاً ووحيداً وغاب عنه أيّ شعور بالترحاب.

كرهت أن تفكّر في هذا المنزل الرّائع، الذي قضت ورومان فيه فترةً من السعادة قصيرة، وقد انتقل إلى مجموعةٍ من الغرباء. غير أنّها ما لبثت أن ردّدت على نفسها بقوةٍ أنّ ذلك لن يحدث. فما كانت لتكون هنا أبداً لو لم تظنّ، بطريقةٍ أو بأخرى، أنّ الأمور ستصطلح لو تصارحا.

من حسن الحظ أنّ مانويل لم يكن قد أغلق الباب ليلاً بعد. كان الرواق غارقاً في العتمة الحالكة. وراحت تتحسس طريقها لزر الكهرباء، ثمّ أنارت المكان.

بدأ الشعور الغريب يكبر في داخلها، حتّى استحال خوفاً... وإذا بها تلمح إلى جانب السلالم صناديق كبيرةً مليئةً بالكتب.

ابتلعت ريقها بقوةٍ محاولةً أن تقضي على الانقباض المؤلم الذي استقرّ في حنجرتها.. لقد بدأ رومان بحزم أمتعته، بما في ذلك تلك الكتب الغالية على قلبه من المكتبة الواسعة التي أغنتها أجيال عائلة فرناندیز كنوزاً.

يجب أن توقفه عند حدّه بطريقةٍ ما.

نادته لكن لم يجبها إلاّ ترجيع الصّدى وبقايا صمتٍ خيّم على المنزل القديم. توقّعت على الأقل أن تبرز مدبرة المنزل، أو زوجها من المطبخ أو المكتب على التّوالي، غير أنّ أحداً لم يظهر.

عضّت على شفتها، وأخذت تبحث في الغرف في الطابق الأرضي. لا شيء! لم تجد إلاّ الفراغ.. والمكتبة والخزنة الجدارية المفتوحة فارغتان. ولكن هناك حقيبة على الطاولة ممّا أنبأها أن زوجها في مكانٍ ما

هنا.

تقدّمت ببطء حتّى بلغت أعلى السلالم، وقد بدأت خصل شعرها تتساقط على جبينها. فما كان منها إلاّ أن أبعدتها عن وجهها بحركةٍ تنمّ عن فروع الصبر.

فجأةً، أبصرت نوراً فضياً خافتاً تحت باب الغرفة الرئيسية، تلك الغرفة حيث تشاركا الحب والشغف.

لم تسمح لنفسها حتّى بالتفكير في أنّ مواجهتهما القادمة سيكون لها تأثيرٌ سلبيّ فيها وفي الطفل العتيد، بل فتحت الباب بسرعةٍ وتقدّمت إلى داخل الغرفة.

لم ينر الغرفة إلا مصباحٌ جانبيّ، ألقى بظلاله على زواياها. كان رومان يخرج ثيابه من الخزانة في ظلّ النور الباهت، ثمّ يرميها كيفما اتفق في حقيبةٍ مفتوحة.

أمّا ثيابها، تلك التي أصر على شرائها قبل أسابيع، فكانت مكدّسة فوق السرير. عندئذٍ، أحست بكتلةٍ جديدة تنعقد في حلقها.

لم يتوقّف البتة. ولم يلتفت قط. بل قال وحسب:

- إن جئت كي تستعيدي أغراضك فلا داعي لهذا الإزعاج. ستعود تيريزا في الغد. كنت سأطلب منها توضيبها وإرسالها إليك.

أخيراً، التفت فعلاً، ببطءٍ شديد. كشف النور الباهت عن ملامح زادتها الأيّام قسوةً. كان يرتدي قميصاً أبيض فوق سروالٍ أردوازيّ رماديّ، متعارضٍ جداً مع بشرته السمراء وعينيه السوداوين اللتين لا تسامحان أبداً.

ابتلعت ريقها بعصبية، وبحثت عبثاً عن وسيلةٍ تخفّف فيها من حدّة التّوتر. أخيراً، قالت من غير تفكيرٍ: «كيف علمت أنّني أنا من دخل؟ كان يمكن للمقتحم أن يكون سارقاً!».

أجاب بلا اكتراث:

ـ عرفت ذلك وحسب. لكن كلمة السارق مناسبة. لقد سرقت منّي شيئاً، ولا أظنّ للحظة أنّك جئت لترديه.

لم تكن المتاهة ملائمة لوصف تسلسل أفكاره الغارقة في العذاب. لقد غادرت هذا المكان وهي لا تحمل إلاّ ما أحضرته معها في البداية! لكنّ الوقت غير مناسبٍ الآن لتسأله لمَ أضاف السرقة إلى اللائحة الطويلة التي اتّهمها بها.

سدّد إليها نظرةً ثاقبة أخيرة من تحت رموشه. وقد استحال فمه خطاً قاسياً، وما لبث أن أغلق الحقيبة المفتوحة بقدمه، قبل أن ينحني ليقفلها، ثمّ يستقيم مجدّداً.

فكّرت في رعبٍ أنّه بات على استعدادٍ للرّحيل. كان قد حمل الحقيبة الثقيلة ومشى بخطواتٍ سريعة نحو الباب حيث تقف. انعصر قلبها كرباً. لا يمكن أن ينتهي الأمر على هذا النحو... لن تدعه ينتهي هكذا!.

ـ علينا أن نتكلّم.

بدا صوتها مرهقاً، لكنّ (كاسي) ظلّت متماسكة. فإن أراد أن يعبر هذا الباب، فعليه أن ينتشلها من مكانها. غير أنّها أحسّت أن لمسها من قريبٍ أو من بعيدٍ هو آخر ما يتمنّاه.

ـ لماذا؟.

كان سؤاله فاتراً. غير أنّه توقّف فعلاً، سامحاً لمسافةٍ غير قصيرة أن تمتدّ بينهما، وفي عينيه نظرةٌ باردة ملؤها النبذ.

ـ كنت في لاس كولیناس في بداية هذا المساء. أخبرني روي أن خبر البيع أصبح علنياً.. أنت تنوي أن تبيع كلّ شيء!.

رفع حاجبه تعجباً: «ولحقتني من أجل هذا؟ يا إلهي! لا شكّ في أنّك تتشوقين للملابس التي خلّفتها! أم أنّك تطمحين إلى التدخل في حياتي من جديد عن طريق فراشي؟ أفضّلت حياة الرغد في إسبانيا على مشاركة عشيقك في شقةٍ صغيرة؟».

أغمضت كاسي عينيها لبرهةٍ، وأرجعت رأسها إلى الخلف، وكأنّها تحاول أن تصدّ الدموع التي تهدّد بالانهمار بين الفينة والأخرى. لقد توقّعت أن تواجه بعض الصعوبات في البداية، لكن تبيّن لها أنها أكثر ألماً مما قد تتصوّر.

صحّح لها، وهو يخفّف من قبضته على الحقيبة حتى تركها تسقط أرضاً:

ـ كما أنني لن أبيع كل شيءٍ تماماً. سيبقى المنزل في جيريز من ممتلكات العائلة، خدمةً للجيل الأكبر.

وبعد أن هزّ كتفيه لامبالاةً، أضاف: «وبعد أن يؤدّي المكان خدمته... من يدري؟ فقد يؤول إلى المصير نفسه الذي سارت إليه الأراضي وهذا المنزل».

تقبّضت حنجرتها ثانيةً، فخرجت الكلمات بصوتٍ أجش متهدج: «لا يمكن أن تفعل ذلك!».

فسيمضي بقية حياته نادماً، فميراثه أهمّ ما في حياته.. كتّف يديه تحت صدره، فيما رجلاه الطويلتان متباعدتان وأنفه الروماني شامخٌ.

ـ لا يمكن لأحدٍ أن يملي عليّ تصرّفاتي.

طعنتها كبرياؤه في الصّميم.. ولكنها تعرف أهمية ميراثه الغالي في نظره، ومن هنا، أيقنت أنّ قراره عائد بلا ريب إلى سببٍ خطيرٍ جداً. فسألته بمزيجٍ من السخرية والحدّة:

ـ أهو قانونٌ تطبقه على نفسك؟ ماذا كنت تقول؟ إنّك لا تكاد تكون الوصي على ميراثك، وإنّه شرفٌ لك أن تسلمه إلى الجيل القادم في حالةٍ أفضل ممّا تسلّمته؟ أم أنك نسيت ذلك؟.

لمحت عضلةً قرب فمه تنقبض، وأخرى عند فكّه تتشنج. أخيراً قال:

ـ بما أنّه لن يكون هناك جيل قادم، فلا أرى جدوى من ربط نفسي بأماكن لا تحمل إليّ إلا ذكرياتٍ سيئة عن امرأة لم أعد أعرفها. ظننتُ أنني

أعرفك، لكنّك خدعتني خلال أسابيع قليلة مثالية.

اضطرب قلبها. كان الشعور من القوة ما كاد يستحيل ألماً. لقد تبعها إلى إنكلترا ليسألها العودة إليه، لا شك في ذلك. وهي لم تنسَ ذلك المشهد بعد. أيعقل أنّه يشعر بالعذاب مثلها؟ كيف تثبت أنّها أحبّته، وأنّ أحداً غيره لم يسكن قلبها؟.

ـ رومان...

أرادت أن تتقدّم نحوه، أن تمسكه لتزيل الحزن عنه. لكن، رغم أنّ الألم في فؤادها كان كبيراً إلى حدّ اليأس، عرفت أنّ الوقت ما زال مبكراً جداً. كان عليها أن تقنعه أن ما شاهده بأمّ عينه، وسمعه في شقة غاي لا يمتّ إلى الحقيقة بصلة.

ردّدت اسمه بنعومة: «رومان. في الأمر جدوى، فأنت تملك وريثاً».

ما إن قالت ذلك، حتّى نقلت يدها من غير وعيٍ منها إلى بطنها، ثمّ أعادتها بارتجافٍ إلى مكانها، ولكن لم يخف عليها التّواء فمه الساخر.

ـ أتريدين أن توهميني أنّ طفل عشيقك هو ابني؟ أنت تهينيني يا سنيورة!.

ـ هذا ليس طفل غاي!.

ـ ولا طفلي أيضاً. كنت تتناولين حبوب منع الحمل عندما كنّا... معاً. أم أنّك نسيت ذلك أيضاً؟ أتحسبينني غبياً؟.

كان قد ضمّ يده في قبضةٍ قوية عند جانبه، فيما ارتسم خطٌّ أبيض من الغضب حول فمه.

ـ رأيتكما معاً بأمّ عينيّ. كنتما ترتديان ثياباً تليق بعشيقين. كنت تعيشين معه. وفي الواقع يا سنيورة، يمكنك العودة إليه مباشرةً متمتّعةً ببركاتي!.

مرّرت يدها فوق جبينها المحموم بارتجاف. أحسّت أنّها تعيش أسوأ كوابيسها. ولكن عليها أن تخلّف كوابيسها وراءها، فهذه المرّة..

فجأةً، سيطر عليها الضعف. فقد كان يومها طويلاً، طويلاً، بدءاً من السفر إلى جيريز وانتهاء بالقيادة إلى هذا المكان. ومقابل كلّ ذلك، لم تكن قد أنجزت شيئاً. الحصيلة؟ صفر! لن يصدّق أبداً أنّها تحبّه، تحبّه أكثر من أيّ شيء في هذا العالم...

حتى لو قالت له ذلك بنفسها؟.

ملأت رئتيها بقدر ما احتاجت من الهواء. كان عليه أن يصدقها!.

ـ رومان... لطالما أحببتك. لم تربطني علاقةٌ بأيّ رجلٍ آخر، رغم ما تظنّه.. استطعت أن أعبّر لك عن حبّي جسدياً، لأنني نضجت أخيراً، وبدأت أقدّر نفسي كإنسانة... كامرأة.

لم تستطع أن تنظر إليه، أو أن تتحمّل عدم التصديق والسخرية في عينيه، وإلاّ عرفت أنّها منيت بفشلٍ ذريع. فما كان منها إلا أن راحت تذرع المكان، بنشاطٍ عصبيّ طغى على تعبها.

ـ أملت أن تقول لي مرّةً إنّك تريد مني البقاء لما يزيد عن الأشهر الثلاثة التي حدّدتها. أملت أن ترغب في إنجاح زواجنا مثلي. لكنّك أعلنت أنني حرّة في الرحيل. فوجدت أنني أصبحت خارج نطاق الخدمة، لأنك كنت قد سمعت لتوّك أن دلفينا قد خطبت. ما عساي أفكّر غير ذلك؟. وبفضلك، لم تعد شقتي القديمة فوق متجر سيندي متوفرة. لم أكن أملك مكاناً أسكن فيه. فعرض غاي إيوائي حتّى أبدأ حياتي من جديد، فقبلت على مضض. لست أدري لماذا قال ما قاله. كلّ ما أعرفه...

قاطعها رومان بفظاظة: «إنّه مغرمٌ بك».

ـ لسوء الحظ.

صمت. كانت تدير إليه ظهرها، وهو لم يكن يستجيب لاعترافات حبّها. لقد فتحت له قلبها فلم يقابلها بغير الصمت. ألأنّه يظنّها كاذبة؟.

لم يتبقَّ أمامها إلاّ أن تقول:

ـ يمكننا تدبّر اختبار أبوّه في وقتٍ لاحق. من شأن ذلك أن يثبت، بما لا يدع مجالاً للشك، أنّك والد الطفل.

خنقت الدموع حلقها. هذا ما ستؤول إليه الأمور: اختبار في المستشفى، في وقتٍ لا تحتاج فيه إلاّ إلى الحب والثقة.

ظلّ السكوت يصمّ الآذان. لا بدّ أنّه يشعر أنّ حبّه لها لا يستحق النّضال من أجله، وأنّ بوسعه الاستغناء عنها. لكن هل بوسعه الاستغناء عن طفله؟.

إن مجرّد فكرة وجود طفل صغير في أحشائها تمزقها إرباً. . لم يكن منها إلا أن ضغطت بأصابعها على صدغيها، واتّخذت أصعب قرارٍ في حياتها وأكثرها إيلاماً.

ـ حين تقتنع أنّ الطفل طفلك، سأسلمه أو أسلمها لك، كي تربيّه. فتمسّك بميراثك من أجل ابنك. سوف. . .

اضطرب صوتها واختنقت الكلمات في جوفها. غير أنّها عرفت أنّ ما من خيارٍ آخر أمامها.

لا شكّ في أنّ التخلي عن ابنها سيقتلها، وأنّ سعادة العالم برمتها ستموت في نظرها عند ذلك اليوم المشؤوم. لكنّها تحبّ رومان إلى حدٍ تعجز فيه عن حرمانه من الولد الذي لطالما تمنّى أن يحمل اسمه.

ـ لن أطلب منك إلاّ أمراً واحداً. أن تطلعني. . . دوماً. . . على أخباره. سأتنحى عن طريقك ولن أتدخل أبداً. تكفيني. . . صورٌ في المناسبات.

***

١٤ ـ وداعاً للشكوك

بدا صوته أجشّ: «كاس، أتعلمين ماذا تقولين؟».

كان يقف خلفهاالآن، لكن ليس بما يكفي لملامستها. بالرغم من ذلك، أحسّت بلفحات دفئه ونبضات رجوليّته القوية. .

ارتجفت لأنها تريد منه أن يحتضنها بين ذراعيه ويطمئنها إلى أنّ كلّ شيء سيسير على ما يرام. لكنّها كانت تعلم علم اليقين أنّه لن يفعل.

ـ نعم.

كان هذا أقصى ما استطاعت أن تتلفّظ به. شعرت وكأنّ صدمةً كهربائية تملكت جسدها كلّه حتى تكاد تتفتّت إرباً بين الفينة والأخرى.

ـ لماذا؟.

ساد الصمت لفترةٍ قصيرة قبل أن يسألها بنبرةٍ حادّة:

ـ ألا تريدين طفلنا؟ أترغبين في التّخلص منه؟.

أخيراً، صدّق أنّ الطفل ابنه. ألأنّها عرضت إجراء اختبار أبوّة؟ بعد لحظاتٍ، لفّت ذراعيها بشدّةٍ حول خصرها علّها تتماسك وردّت: «بالطبع أريد طفلي؟ تباً لك!».

أفلت الاحتجاج الانفعالي منها، حتّى مزّق أضلعها، فيما صوتها يخالطه مزيجٌ من القساوة عكّر صفو الأجواء. كيف تعتريه هذه الظنون في

www.elromancia.com

حقّها؟ لمَ يتعمّد دائماً أن يسيء بها الظن بكلّ هذا التّحجر؟.

غير أنّه أصرّ بصوتٍ خفيض، لم تحسّ بعمقه هذا من قبل:

ـ إذاً، لمَ تريدين التّخلي عن ابنك؟ من أجلي؟ أحتاج إلى معرفة السر يا كاسي.

بقيت كتفاها مرفوعتين، تضجان بالتّوتر. عند ذلك، لامسها، وهو يدلك ظهرها بعناية، وما لبث أن أصرّ بهدوء: «أخبريني».

أجابت بانفعال، وهي تريد أن تفرغ من هذه المسألة قبل أن تنهار تماماً:

ـ بإمكانك... أن تمنح ابننا نمط حياةٍ أرفع ممّا أستطيع تأمينه. لكنّ هذا ليس بالعامل الأهمّ.

ارتبك صوتها، وقد بدا لها أنّ كلّ كلمة تقولها تبعدها أكثر فأكثر عن الحياة الجديدة في أحشائها.

ـ من حقّ طفلك أن ينحدر من السلالة العظيمة التي أسستها عائلتك، فيتمتّع بالتاريخ العظيم الذي تنوي هدره. إن إنجاب وريثٍ سيوقفك عن ارتكاب أكبر خطأ في حياتك... سيمنعك من إيلاء ميراثك ظهرك بسبب بعض الذكريات السيئة التي خلّفتها لك. لن أسمح لك بذلك! ألا تفهم؟.

ازداد الضغط في صدرها حتّى أضحى من المستحيل التّحكم بالتعاسة التي اجتاحتها:

ـ أعرف... أعرف أنّك ستحبّ ابننا.. صدّقني، لم أكن لأفعل هذا لو كانت لديّ أيّ شكوكٍ في هذا الموضوع.

اهتزّت كتفاها قليلاً، وسرعان ما رفعت يديها لتغطّي وجهها، وقد جرت الدّموع أخيراً من مقلتيها. لقد اتّخذت قراراً، كان الأصعب في حياتها، وقالت ما كان ينبغي أن يقال. لكنّ أسفها الوحيد هو أنّها لم تتمكّن من الهروب محتفظة بقليلٍ من كرامتها.

لـمَ لا يحبّها كما سيحبّ طفلهما؟ لمَ استحال ما يكنّه لها من مشاعر

مرارة واضحة؟ لمَ لا يصدّق الحقيقة التي ذكرتها.. لِـمَ لا يصدق أنها لم تكن على علاقة برجلٍ غيره؟

لم ينبس ببنت شفة. فأكّد لها صمته الثقيل أنّ كل المشاعر الغامضة التي كنّها لها في الماضي قد باتت الآن طيّ النسيان فعلاً. ولكنه ما لبث أن استدار بلطفٍ، وغمرها بين ذراعيه، حتّى ترامى رأسها فوق صدره الواسع.

كان هذا مجرّد تعاطفٍ يبديه إنسانٌ تجاه أخيه المتضايق. ولن تسمح لأفكارها بمزيدٍ من التوغل.

بعد لحظاتٍ، تكلّم ويده تملّس على شعرها، فيما الأخرى ما زالت تحيط بخصرها:

ـ كاس، كفى. لا بأس من التخلّص من التّوتر. لكنّ البكاء المفرط سيضرّ بك وبالطفل.

استطاع بكلامه أن يوقف الدموع المنهمرة ويسمرها في مكانها فعلاً. طبعاً! كان طفله همّه الأول وحسب!.

رفعت رأسها عن قميصه المبتل وردّت:

ـ لا نيّة لي في إيذاء طفلي! فلا تقلق. كان إنجاب الوريث السبب الرئيسي الذي دفعك إلى الزواج بي، هذا إضافة إلى إبعاد أطراف عائلتك عنك. غير أنّك ربحت في كلتا المسألتين. فلا تواصل التّحدث في ذلك وحسب!.

لن تبكي مجدّداً. لن تفعل ذلك! فما حدث حدث وبإرادتها الخاصة. والآن عليها أن تتعلّم تقبل ذلك، بطريقةٍ ما.

ـ صه. كفّي عن تعذيب نفسك، وإلا مرضت.

وما لبث أن رفعها، وحملها إلى السرير المزدوج الكبير، وهو يرتّب الوسادة خلفها بعناية، فيما يمسكها باليد الأخرى ليمنعها من التّحرك.

بعدئذٍ، أمرها بلطفٍ «اهدئي». وسرعان ما فارقتها الرغبة في

المقاومة، وحلّ التعب في عظامها.

حين ارتخت أخيراً فوق الوسادات، قال لها:

ـ أنت محقّةٌ تماماً.

لم تفارق عيناه وجهها المضطرب المبلل بالدموع، حتّى حين انحنى ليخلع حذاءها، ثمّ جلس على حافة الفراش، ومرّر أصابعه على شعرها الطويل، وهو يزيح بعض الخصلات عن جبينها برفق.

ـ لقد فزت. فقد سرقت منّي شيئاً وها أنت قد أعدته.

سألته بقسوة: «ماذا؟». كانت تكره كلّ هذه الملاطفة والاهتمام بقدر ما كرهت لحظات صمته السابقة.

في الواقع، لم يكن مهتماً إلا بالطّفل الذي وعدت بمنحه إياه. لو لم تكن حاملاً، لأمرها حتماً برمي نفسها في مياه المحيط الجليدية.

ـ لم أسرق منك شيئاً يوماً، فلا تخلط بيني وبين توأمي.

لم تكن ترغب في التّواجد في ذلك المكان. بل أرادت أن تكون بعيدةً، حيث تجد بعض الظلام والخصوصية تداوي فيهما جروحها، وتحاول أن تتقبل الوعد الذي قطعته.

هذا إلى أنّها لا تريده أن يراها على تلك الصّورة، وقد أخذ منها الانفعال كلّ مأخذ، واستحال وجهها أحمر من شدّة النحيب، فيما شعرها بات أشعث وثيابها ملطخة وغير مرتّبة.

تمتم بنعومة: «لقد سرقت سعادتي... وفخري بميراثي وكلّ ما يجعل الحياة تستحقّ العيش، تقريباً».

ضمّ يديها في يديه، ثم رفعهما إلى فمه، فطبع عليهما قبلةً أشبه بأجنحة فراشةٍ على أناملها. بعدئذٍ رفع رأسه وتابع:

ـ والآن، قد أعدتها إليّ. وأنت محقةٌ ثانية. كنت محتاجاً لوريث، لكن لم أتزوجك لذلك السبب. شعرت بعاطفةٍ كبيرةٍ نحوك يا كاس. تملكني دافعٌ قويّ لحمايتك والاعتناء بك. وهذا ما لم أشعر به تجاه أيّ

امرأةٍ أخرى، وعرفت، أنّك تكنّين لي مشاعر أيضاً أو على الأقل أملت ذلك. لكنّ ذلك لم يبدُ من الناحية الجسدية. كنت أتمزّق من الداخل، لأنني جهلت السبب حينها. لذا، رحت أتغيّب لفتراتٍ طويلة. ولم أعرف أني أحبك، إلا حين رحلت في المرة الأولى..

تمتمت بتعاسة وهي تكره كيف كانت في الماضي: «كانت غلطتي!».

كم كانت خجولةً وغبيّة حينها. لكن هل يصيبها الخجل الآن أيضاً، سيّما وأنّها تسمع ما لطالما تاقت إليه؟ أم أنّه قصد حقّاً أنّه أحبّها في يومٍ من الأيّام؟.

قابلها بحدّة: «لا! بل غلطتي تماماً. لكنّنا لن نتجادل بشأن ذلك. كل ذلك انتهى. أصبح طيّ النسيان كما يقال. ما يهمّ الآن هو كيف نصنع مستقبلنا».

عضّت كاسي على شفتها السفلى، ثم سألت بوقاحة وهي تتحرّق شوقاً لتعرف:

ـ أتريدني، كما تريد الطّفل؟ هل تصدّق أنني لم أحبّ سواك فعلاً؟.

أخذ نفساً عميقاً وأجابها: «كاس، أصدّقك تماماً».

ثمّ خيّل إليها أنّ عينيه رقّتا ببعض العبرات قبل أن يضيف بانفعال:

ـ كنت مستعدّةً لتقديم أكبر تضحية يمكن لامرأةٍ أن تقوم بها، من أجلي. هذا أكّد لي كم تحبّينني، وجعل كلّ شكوكي تندرج في إطار التفاهة. إنّ عمق حبّك قهرني أيتها العزيزة.

ثمّ وقف وقد تغيّر مزاجه فجأةً:

ـ أنت تعبة يا عزيزتي كاسي. سأعتني بك أشدّ اعتناء. هذا هو واجبي الأوّل. وفي الغد، سأعيّن لك موعداً عاجلاً مع أحد أشهر الأطباء النسائيين. وسأرافقك طبعاً. سأكون معك خلال كل مرحلةٍ من مراحل الحمل، أما الآن، فسأحضّر حمّاماً، كي تسترخي في المياه الدّافئة..

ولأعدّ لك كوباً من الحليب الساخن، كما أنّك ستأكلين..

قطّب حاجبيه السوداوين وأردف:

- لا أظنّك فكّرت في الطعام إبّان اندفاعك الجنوني إلى البلدة.

تابع بعزم بعد أن وجّه إليها هذا الاتّهام:

- عليك أن تحسني الاعتناء بنفسك، وإلا فعلت ذلك بنفسي. لن يعود تيريزا ومانويل حتّى الغد بسبب احتفالٍ بعيدٍ عائليّ. صحيحٌ أنها تركت لي بعض المأكولات، لكنّها مليئةٌ بالتوابل ولا تفيدك. ستحبّين العجة التي سأعدّها.

- توقّف!

طوت كاسي ركبتيها، وقد ترقرقت العينين بدموع الانفعال، والتوى الثغر بابتسامة حنانٍ. لم يَبد رومان على هذه الصورة الإسبانية من قبل، لا بل لم يبدُ فيه مرّةً هذا العزم على تصحيح الأحوال.

- دلّلني إن أردت، فلن أشتكي، لكنّ الطعام ليس في قائمة أولوّياتي حالياً.

مدّت إليه يديها وهي تتابع:

- إنسَ واجبك ولو للحظة وتعالَ تحدّث إليّ. أخبرني، هل قصدت كلامك حين قلت إنّك أدركت أنك تحبّني حين...

- حين تركتني، كنت مشتّتاً تماماً. لم أستطع أن أصدّق شعور الفراغ الذي تملّكني.

عضّ على شفته السفلى، فكانت المرّة الأولى التي تقرأ فيها هذا التردد.

- هل أنت متأكدة من أنّك تريدين منّي الإسهاب في الكلام؟.

تنبّه بسعادةٍ لإيماءة العينين المشرقتين، فعاد نحوها، وقد نضح وجهه برقةٍ فيما هو يتناول يديها.

- حثّني دافعٌ أوّل على إرغامك على العودة، والجلوس معاً، في مكانٍ

ما بعيداً عن العائلة، لنحاول اكتشاف السبب الذي جعل زواجنا كارثةً من الكوارث.

جلس على حافة السرير، ومرّر يديها على صدره.

- غير أن أحاسيسي أكّدت لي خطأ ذلك. فانطلاقاً ممّا أعرفه عن ماضيك ووفقاً لمعاملتي الخاطئة لك إبّان زواجنا، أمضيت حياتك كلّها تنفذين الأوامر، وتنقادين لرغبات الآخرين. كنت بحاجةٍ إلى وقتٍ كي تكتشفي نفسك.

ابتسم برفقٍ لعينيها المبلّلتين المشرقتين، وواصل:

- بقيت أراقبك، وسأخبرك يوماً ما كيف فعلت ذلك، وأقنعت نفسي بالصّبر لسنةٍ. بعد ذلك، كنت سأزورك وأحمل إليك الأزهار والعطور والجواهر، بالإضافة إلى حبّي. كنت سأتوسّل إلى عروسي كي تعود لي.

تمتمت بتفكيرٍ: «لكنني جئت إليك أوّلاً».

لو لم يسرق روي ذلك المال، لما ذهبت إلى رومان، بل لأتى هو إليها... كي يتوسّل إليها العودة. ما كانت لتتمكّن من مقاومته عند ذاك. عرفت ذلك تماماً، فلطالما مثّل لها ما رغبت فيه دائماً. لو حصل ذلك، لتجنّب كليهما كثيراً من الحزن.

- في ذلك اليوم، استقالت أحاسيسي منّي!.

مال نحوها وقبّل طرف أنفها.

- توقّعت أن أرى فيك تغييراً، لكنّ حجم التبدّل وقع عليّ وقوع الصاعقة. كنت قد استعدت كل وزنك المفقود، وغادرك التعب الذي لطالما أثقلني، وامتلكت ثقةً بالنفس ورباطة جأش. لم تبدي كامرأةٍ يمكن التودد إليها بسهولةٍ، إلاّ إن كان ذلك بإرادتك. وكنت متأكداً في تلك المرحلة أنّ تلك لم تكن إرادتك آنذاك. فطرأت عليّ تلك الفكرة المجنونة في اللّجوء إلى الابتزاز، وسرعان ما ندمت عليها لاحقاً. كان ذلك غير

جدير بي أبداً.

تقدّمت كاسي إلى الأمام، وأخذت تتودّد إليه التماساً للدّفء. أصبحت في منزلها حيث تلقى وطفلها الحبّ الّذي يحتاجان إليه، فكبحت تثاؤباً.

وقالت: «لهذا كنت متكبراً قاسياً حين قلت إنّني حرةٌ في الذهاب. ظننت...».

ردّ بحدّة: «أعرف ما ظننته. لكنك كنت أبعد ما يكون عن الحقيقة. كان عليّ أن أمنحك الخيار، بلا أيّ ضغوطٍ. أردت من كلّ قلبي أن أسمعك تعبّرين عن رغبتك في البقاء معي. لكنني أعرف الآن أنّك ترغبين في ذلك».

أجابت والنعاس يداعب أجفانها، ورأسها يميل فوق كتفه:

ـ إلى الأبد... قل لي إنّك تحبّني.

ـ أحبك.

تناهت إليها الابتسامة في صوته. وسرعان ما همس في شعرها:

ـ أحبك كثيراً كثيراً. كنت أعرف أنّه يجدر بي الابتعاد عن الذكريات قدر المستطاع إن أردت المحافظة على عقلي. كما أعرف أنّ كل ذلك وصل إلى ختامه الآن. أما أنت...

تابع بنشاط: «فعليك بحمام وسريرٍ وطعام».

حملها بلا جهدٍ، فلفّت ذراعيها حول عنقه، وتمتمت:

ـ لا أريد طعاماً. الوقت متأخر، وبي من النعاس ما يمنعني من الأكل.

أمّا الحقيقة، فكانت أنّها لا تودّ الابتعاد عنه، وإلاّ ظنّت نفسها في حلمٍ من الأحلام.

تثاءبت بشدةٍ إثباتاً لوجهة نظرها، فسدّد إليها نظرة قلقٍ عابسة، فيما هو يضيء الحمّام، ويحرّرها من قبضته، فينزلها، وهو يسندها بيدٍ واحد،

بينما يفتح الصنبور ليملأ المغطس.

بعدما استحمت ساعدها على العودة إلى غرفة النوم ووضعها على السرير وقال لها: «سأتركك لتنامي بمفردك الآن».

اقترحت بصوت أجش: «لمَ لا تنضمّ إليّ؟».

مرّر إصبعه ببطء ردّاً على دعوتها المغرية، وهتف:

ـ صدّقيني، ما من شيءٍ قد يثلج صدري أكثر في العالم.

أحسّت أنّ الأنوار مسلّطة على أعماق عينيه الدّخانيتين، وشقّت ابتسامةٌ ساخرة طريقها إلى شفتيه المغريتين قبل أن يجيب بجفاف:

ـ لكن، ستكون فكرةً سيئةً جدّاً، فأنت تحتاجين إلى الراحة. وقد تؤدي خطوة إلى أخرى، فلا يحظى أيٌّ منّا بنومٍ على الاطلاق. هل تفهمينني؟.

كانت قد فهمته جيّداً. رغم ذلك، أما كانت ليلتهما لتكون رائعة؟.

***

تململت كاسي بكسل تحت الأغطية الناعمة. كان الفجر قد انبلج. إنّه يومٌ جديد! إنّها بداية جديدة! ارتسمت ابتسامةٌ قانعة على شفتيها الرقيقتين.

استطاعت أن تتذكّر بإبهام كيف خرجت من المغطس المعطّر، وقد أقبل رومان نحوها ليغلّفها بمنشفةٍ كبيرة، ، ويجفّفها برفق.

كانت حقيبتها الصغيرة ما تزال في الرواق. فقد خيّل إليها أنّ مطالبته بإحضارها تكلّف جهداً كبيراً. فهل نسيت أنّه حملها بين ذراعيه ودسّها بين الشراشف الحريرية، من غير أن تتدثر إلا بمنشفةٍ؟.

أمّا الآن، فهو نائم إلى جانبها، وقد بدت الراحة على ملامحه القاسية حتى خيّل إليها أنّه أصبح شديد التأثر. فاهتاج قلبها بحنان فائض، ومدّت يدها لتلامسه.

لم يكن يرتدي ثياب نومه أيضاً. ما إن لاحظت ذلك، حتّى استحالت ابتسامتها ماكرةً، وومضت عيناها الكهرمانيتان وتقدمت ببطء، ولفت ذراعيها حوله، وقد أشرقت بهالة الحبّ والمشاعر المتبادلة.

أحسّت أنّ جسده الرشيق يتحرّك، وكأنّ لمستها أعادته سريعاً إلى عالم اليقظة. فالتفت وقرّبها منه قبل أن يسند نفسه على مرفقٍ واحد، ولا يفصل بين وجهيهما إلا سنتمترات صغيرة.

سألها وعيناه تومضان بشعاعٍ فضيّ: «هل تشعرين أنك بخير الآن؟».

اقتربت منه أكثر وتمتمت: «أجل، لكن باستطاعتي الشعور بمزيدٍ من الراحة».

رفع حاجبيه بتساؤلٍ: «كيف».

فاحتضنت خدّه بباطن كفّها، حتّى أرسلت بشرته الداكنة الخشنة ارتعاشاً في داخلها. ثمّ أخذت تمرّر إصبعها على وجهه الحبيب وقالت: «هكذا».

لم تكد تفرغ من كلامها حتّى تقدّمت نحوه مطالبةً بأحضانه، فبادلها عناقها بعناقٍ أعمق وأرقّ مما عرفته يوماً، تغلغل فيها حتّى لمس منها الجوارح.

حين فرّقتهما الحاجة إلى بعض الهواء، همس لها بتمزّق: «كاسي، أعشقك».

مرّر أصابعه في شعرها، إلى أن انسدلت الخصلات الداكنة فوق خديه المشدودين.

ـ أريدك بشدّة. لكن هل من بأسٍ عليك وعلى الطّفل؟ ماذا لو تأنّيت؟ واتّخذت احتياطي؟.

ردّت بانتباه، وهي تملّس بيديها على كتفيها، ثمّ نزولاً إلى صدره.

ـ في الواقع.. متأنياً ومحتاطاً؟ لا أعتقد أنّنا قمنا بذلك من قبل.

تمتم بصوتٍ أجش بعد مضي ساعة: «أنت متألّقة... ساحرة ونبعٌ من المشاعر».

تسلّلت يدٌ إلى بطنها، ثمّ راحت الأنامل تتشابك في قبضةٍ مجبولةٍ بالحبّ والشوق.

ـ إن هذا هو النّعيم في نظري. أنت نعيمي. كاسي، حبيبتي، متى أدركت أنّنا سنحظى بابنٍ؟.

أجابته وقد تسارع نفسها.

ـ ولماذا احتفظت بالسّر يا كاسي عزيزتي؟.

ـ أردت أن أتأكّد من أنّك تريدني لنفسي، لا لأنني أمّ ولدك العتيد.

قال وومضٌ من العزم يشعّ في عينيه:

ـ أظنّ إذاً... أنّ من دواعي سروري وواجبي أن أطمئنك.

ونفذّ كلامه على أتمّ وجه.

***

بعد تسعة أشهر.

بدا سيبستيان رومان فرناندیز البالغ من العمر ثلاثة أشهر رائعاً في ثيابه البيضاء. كان قد ورث عيني أمّه الذهبيتين، أما بقية ملامحه، فقد ورثها كلها عن أبيه.

كانت حفلة العائلة قد استمرّت في هرجٍ ومرج. فتيريزا التي أصبحت من أشدّ المعجبات بكاسي، اهتمّت بالتّحضيرات على أحسن وجه، ودعت الضّيوف إلى التّمتع بجمال الفناء وحديقته.

أقرّت العمّتان أنّ سيبستيان هو فعلاً أجمل طفلٍ في اسبانيا كلّها، بينما أكّدت الدونيا ألفيرا:

ـ لقد أسعدت ابني. لم أصدّق أنّ بإمكانك ذلك في بادىء الأمر، غير أنّك أثبتِ أنّني مخطئة. يا عزيزتي، نرحب بك فرداً من عائلتنا.

كان مظهر كاسي قد عاد إلى سابق عهده. بدت أخّاذةً في ثوبها الحريري الأبيض، وعقد اللؤلؤ الذي قدّمه إليها زوجها بمناسبة ميلاد ابنهما.

بعدما التقطت صورهما مع الضّيوف جميعاً، عادت كاسي إلى جانب ابنها، تتأمله بحب وهو نائم.

سرعان ما انضمّ إليها رومان وهو يبدو وسيماً إلى حدّ بالغ ببذلته الفاتحة الأنيقة. ثمّ قدّم إليها عصير التّفاح وقال:

ـ في صحتنا نحن الثلاثة، في صحة زوجتي الجميلة، وابني الوسيم وأسعد زوجٍ في هذا العالم.

تألقت الابتسامة على وجهها، فيما هي تقترب لتطبع قبلةً على وجه الساحر، وقالت له:

ـ اشتقت إليك... أين كنت؟.

ـ كنت أكلّم روي. تمكّنت من إبعاده عن كونسويلا، كي أناقشه في بعض المشاريع الجديدة، وأستطلع أراءه.

رسم ابتسامةً أسرتها تماماً.

ـ هل تعتقد أنّ علاقته... بكونسويلا جادة؟.

لم يكن أخوها قد انفصل لبرهةٍ عن الفتاة السوداء الشعر، وهي أصغر بنات مدير العقارات. واستطاعت كاسي أن تتبيّن ملامح الانجذاب بينهما.

كان روي قد نضج باعتراف الجميع. بالفعل، بدت ملامحه أقوى وأصلب، من دون أن يخفي عليها السمرة التي خلّفتها أشعة الشمس على وجهه. باختصار، أصبح أخوها رجلاً متيناً، زاد العمل الشاق في الأراضي من عرض منكبيه وقلّص من الوزن الزّائد الذي هدّد بالتضاعف سابقاً.

أقرّ رومان: «أظنّ أنّ العلاقة جادة بالتأكيد» ووفقاً للطريقة التي يتقدّم

بها روي، أعتقد أنّه سيتسلّم منصب المدير حين يتقاعد ميغيل وكاس...».

مرّر ذراعه حول كتفها وتابع: «ما رأيك لو زرنا لاس كولیناس لأسابيع قليلة، فأعرّف سيب الصغير على المكان؟ أعرف كم تحبّين سان لوكار، وسيبقى هذا المنزل بيتنا الدّائم، لكن...

قاطعته: «لكنّك تتوق إلى المساحات الفسيحة الواسعة؟ وتريد أن تقحم نفسك في الأعمال؟ وأنت الأهم عندي».

وهذا ما تشعر به فحيثما يكون رومان، تتمنّى أن تكون هي بدورها. كان قد أدار العديد من الأعمال الناجحة في سان لوكار، كما زار سيڤيل من وقتٍ لآخر لبضع ساعاتٍ، غير أنّ لاس كولیناس ما زالت تجري في دمه.

تشابكت أعينهما قبل أن يسألها: «هل أنت متأكدة؟».

ففي تلك الأيّام، لم يكونا يخفيان سراً عن بعضهما، بل بدوا كإنسان واحد، رغم الاختلافات المثيرة اللامتناهية. غير أنّ ذلك لم يمنعه عن المتابعة.

ـ قد تنتقل أمّي مع العمّتين بكلّ لباقة إلى جيريز طيلة مدّة إقامتنا.

لكنّ كاسي هزّت رأسها:

ـ يسعدني تماماً أن أشاركهن المكان. فلن ينتقدن أمّ وريثك!.

كانت ابتسامته ماكرة وهو يجيب: «لا، لا أظنهنّ يجرؤن على ذلك! حسناً، إن كان يسعدك هذا...».

ـ يسعدني. نقطة على السطر.

دسّت يدها في يده، ورفعت كأسها: «نخبنا نحن الثلاثة».

ثمّ أمالت رأسها ببسمةٍ غامضة:

ـ ما رأيك في أربعة؟ يحتاج الوريث إلى أخٍ أو أختٍ على الأقل لئلا يفسده الدلال.

أجابها وأصابعهما تتشابك: «رغباتك أوامر».

بعدئذٍ، أضاف وقلبه يخفق بعنف: «وفيمَ عساي أنفّر طاقتي بغير الخضوع لسحرك؟».

***

www.elromancia.com
مـرمـوريـة